

نوابغ الفكر العربي

١٤

السيد أحمد الدينوري

١٨٤٧ - ١٩٠٦

بقلم عيسى ميخائيل سابا

أكبر عالم لغوي في العصر الحاضر اتفق له
ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين في قوة البيان
وبراعة الإنشاء .

مصطفى لطفى المنفلوطي



دار المعارف بيروت

السبّخ الصّحّح البازجى

نوابغ الفكر العربي

١٤

السيد أحمد بن محمد البازي

١٨٤٧ - ١٩٠٦

بقلم عيسى ميخائيل سابا

أكبر عالم لغوي في العصر الحاضر اتفق له
ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين في قوة البيان
وبراعة الإنشاء .

مصطفى لطفى المنفلوطي



دار المعارف بيروت

الفصل الأول

عصر ابراهيم اليازجي

١ - الحركة السياسية

تمخّض عصر الشيخ إبراهيم عن حوادث اضطراب في طول جبل لبنان وعرضه
أواسط القرن التاسع عشر ، كان أهمها واقعة السنة ١٨٦٠ م وقد اندلعت
نيرانها بين الدروز والمسيحيين ، بإيعاز من الدولة العثمانية التي أمدت
الدروز بالأسلحة ورغبت إليهم أن يقطعوا دابر المسيحيين من البلاد الخاضعة لها ،
لبنان وسوريا ، ظناً منها أنها بذلك تكف أيدي الدول الأوروبية المسيحية عن
التدخل في شؤونها ، لأن أوروبا كانت تمد أصابعها إلى شؤون العثمانيين بحجة
حماية نصارى الشرق . فأجبرتها الدول الروسية في مؤتمر باريس على أن تساوى بين
رعايا السلطنة قاطبة ، فيما يتعلق بالضرائب والوظائف بدون تمييز في المذاهب ،
وأن ترفع الضيم عن النصارى الذين كانوا يصادفون إهانات متعددة من بعض
إخوانهم المسلمين الذين لم ينالوا نصيباً وافراً من العلم والمعرفة وجهلوا كثيراً من
نواهي الدين الإسلامى الحنيف الذى أوصى خيراً بأهل الكتاب ^(١) .

ومن جهة ثانية نرى قبل هذا التاريخ أن الدروز والمسيحيين كانوا متحابين
متصافين ولا سيما في لبنان زمن الأميرين الكبيرين فخر الدين المعنى الثانى وبشير
الشهابى الكبير الملقب بأبى سعدى . تشهد بذلك الأحزاب : القيسى واليمنى
واليزبكى والجنبلاتى حيث كانت تضم بينها مختلف اللبنانيين من الطائفتين
الكرميتين .

(١) « مشهد العيان » . طبعة مصر و « مجمع المسرات » . مطبعة الاجتهاد بيروت سنة ١٩٠٨

ص ٣٤ - ٤٧ و « قوافل العروبة ومواكبها » لمحمد جميل بيهم . مطبعة الكشاف بيروت ص ١٣
و « الحملة الكروانية » ص ٣٥٣ للخورى منصور طنوس الخورى .

وسبق. حادثة سنة الستين السنة العامة ١٨٥٤ م ، إذ وقع في القسم الشمالى من لبنان بعد وفاة الأمير حيدر أبى اللمع حاكمه هيجان العامة ، فثار الفلاحون النصارى على الأمراء والمشايخ والملاكين ، بقيادة رجل بيطرى اسمه شاهين طنوس من ريفون^(١) أشعل نار الثورة في قضاء كسروان ، فلم تلبث أن امتدت إلى المتن ولبنان الشمالى ، فهجم الثوار على الأمراء الموارنة ومشايخهم وسابوهم أملاكهم ، فجاءت تلك الثورة ضربة على المسيحيين عموماً فأصبحوا عرضة للأخطار والضربات وذلك لفقدان الزعامة بينهم ، ولم تقتصر حوادث سنة الستين المشؤومة على لبنان فحسب ، بل تخطته إلى دمشق ، وواليها يومئذ أحمد باشا الذى أوعز إلى الجند أن يساعدوا الثوار على ذبح المسيحيين عملاً بأوامر الباب العالى^(٢) إلا أن الفضيلة لم تفقد أبناءها ، فقد حمى الأمير المبرور المغفور له عبد القادر الجزائرى نحو ألف وخمسمائة نفس في منازلهم^(٣) فكتب في تاريخه صفحة مدادها الفخر والذكر الحسن والرحمات ترى على جلدته الطيب .

وبالرغم مما بذله قناصل الدول الأوروبية من السعى في سبيل تهدئة الحال وحقن الدماء ، لم يحرك خورشيد باشا والى بيروت ساكناً ، وكذلك رفيقه أحمد باشا والى دمشق ، فكأن منظر الدماء المسفوحة ، ظلماً وعدواناً ، قد راقهما وأطرب جلالته سلطانهما الرضى البال ، المتنعم في قصره بين الجوارى والقيان والغلمان في القسطنطينية ، فنقل قناصل الدول الأوروبية خبر المجزرة المروعة إلى دولهم ، فقابلت أوروبا من أذناها إلى أقصاها الخبر بصيحة الاستفظاع ، وطلب الرأى العام في فرنسا من حكومته أن تتدخل الأمر حالاً بدون إبطاء ، وتنب لنصرة مسيحيي لبنان وسوريا ، وتضع حداً لظلم العثمانيين . وفي أوائل تموز (يوليو) من السنة نفسها اجتمع الأسطول الفرنسى والإنكليزى في مياه بيروت ، ونزل الجيش الفرنسى إلى البر . وتدارك السلطان ووزيريه فؤاد باشا الأمر ، فسبق قواد الفرنسيين إلى دمشق لئلا يدخلوها ويطلقوا أيديهم في الحكم ، وأمر بإعدام

(١) ريفون بلدة اصطياف تقع في قضاء كسروان وتعلو عن البحر نحو ألف متر اشتهرت ببساتين التفاح والخضراوات .

(٢) الباب العالى : لقب مجلس السلطان العثمانى .

(٣) « مشهد البيان في حوادث سورية ولبنان » طبعة مصر .

مئة شخص منهم أحمد باشا والى دمشق . ومن ثم عقد مؤتمر في بيروت مؤلف من سفراء دول فرنسا وإنكلترا وروسيا وألمانيا والنمسا وفؤاد باشا وزير السلطان عبد الحميد الثانى ، وبعد مناقشات ومداولات وضعوا نظاماً جديداً للبنان ، أطلقوا عليه اسم «القانون الأساسى» وأقرّوا جعل لبنان لواء مستقلاً تابعاً للاستانة رأساً ، يتولى رياسته متصرف مسيحي ينصبه سلطان تركيا بعد موافقة دول أوربا على تعيينه ، وقد جرى ذلك فى التاسع من حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ ، وبمقتضى هذا النظام قسم لبنان إلى سبعة أفضية مؤلفة من إحدى وأربعين ناحية ، فيها ٩٥٧ قرية ، أما الأفضية فهى : الشوف ، المتن ، كسروان ، البترون ، الكورة ، جزين وزحلة ، وسلخوا عن متصرفية لبنان المستقلة استقلالاً داخلياً ، وادى التيم والبقاع ومقاطعة صيدا وأخيراً بيروت وصور .

وكانت سن المترجم له يومئذ أربع عشرة سنة ، فيكون قد عاصر من متصرفي جبل لبنان ستة متصرفين هم :

داود باشا الأرمنى ١٨٦١ - ١٨٦٨ م

فرنكو باشا كوسى الحلبي ١٨٦٨ - ١٨٧٣ م

رستم باشا الإيطالى الأصل ١٨٧٣ - ١٨٨٣ م

واحده باشا الألبانى ١٨٨٣ - ١٨٩٢ م

نعوم باشا الحلبي ١٨٩٢ - ١٩٠٢ م

مظفر باشا البولونى ^(١) ١٩٠٢ - ١٩٠٧ م

٢ - الحركة الاجتماعية

بعد أن استقرت الحياة فى لبنان وسوريا واطمأن الناس إلى أنفسهم بفضل تدخل الدول الأوروبية ، انصرفوا إلى الثقافة وكانت تباشيرها قد بدأت زمن الأمير بشير الشهابي الكبير ^(٢) فرأينا اختلافاً يباين عصور آداب اللغة

(١) «موجز تاريخ سوريا» للمطران يوسف الدبس . طبعة المطبعة العدمية المارونية . بيروت سنة ١٩٠٧ و «مختصر تاريخ لبنان» منشورات مكتبة صفيير بيروت ص ١٨٢ - ١٨٧ .

(٢) راجع «نوابغ الفكر العربى» العدد السادس ص ٦ - ٩ . طبع «دار المعارف بمصر»

والأحوال الاجتماعية والسياسية جملة . وذلك لتأثير المدنية الأوروبية واتصال الشرق بالغرب ، وتأثير الإرساليات الدينية بما أنشأته من مدارس ومطابع ، كالإرسالية الأميركية والإرسالية اليسوعية وغيرهما ، على أن الحياة العقلية قديماً كانت تنمو نمواً داخلياً بما تبدعه قرائح أفراد من الكتاب والشعراء .

وأما في عصر النهضة فقد توافرت الترجمات وطلعت في سماءها كواكب الفكر الأوروبي فاتجه اتجاهها جديداً في اللغة والأدب والفكر ، وكان للمترجم له فضل كبير في ذلك بما عقده من أبحاث علمية ولغوية وأدبية فقد رفع منار لغة الضاد وأعلى شأنها وألحقها بأرقى اللغات الأوروبية في جميع العلوم العصرية ^(١) .

وكانت العوامل الأساسية في بعث النهضة هي الآتية :

- ١ - إنشاء المدارس الحديثة .
 - ٢ - الطباعة .
 - ٣ - الصحافة .
 - ٤ - روح الحرية الشخصية .
 - ٥ - الجمعيات الأدبية والعلمية .
 - ٦ - المكاتب العمومية .
 - ٧ - المتاحف .
 - ٨ - التمثيل .
 - ٩ - اشتغال الفرنجة بآداب اللغة العربية .
- فهذه العوامل كلها قد أثرت في العقل الشرق ولا سيما اللبثاني ، وبعثت نهضة لمسنا أثرها في أدبنا المعاصر ، ولا نكران أن حقبة والد مترجمنا كانت حقبة تقليد ^(٢) فيها شيء ضئيل جداً من الاتجاه نحو التجدد ، فما إن شب الشيخ إبراهيم عن الطوق حتى عمل إلى ديباجة النثر يلبسها حلة قشبية فترسم أسلوبه غير

(١) انظر المنتخبات و « الموجز في الأدب العربي وتاريخه » . منشورات مكتبة صفيح .

بيروت ص ٢٤٣ .

(٢) « نوابغ الفكر العربي » العدد السادس .

واحد من أدباء عصر النهضة ، ولعل جرجى زيدان يوضح لنا هذه الناحية أحسن إيضاح بما نقل عنه ^(١) بتصرف قال :

« إن أكثر ما ظهر من علوم اللغة في العصر الأول من هذه النهضة لا يخرج عما كتب قبله ، وأكثره تلخيص أو شرح أو تعليق على كتب القدماء . وظلت الحال على ذلك في مصر إلى عهد غير بعيد . أما في سوريا ، ولا سيما في لبنان ، فقد حدث في اللغة وعلومها حركة بين المسيحيين ، وكانوا إلى ذلك العهد قلما يشتغلون في اللغة وقل من ألف منهم ، وإذا ألفوا فلا يلتفت إلى تأليفهم ، ولا يوثق بأقوالهم . وكانت المدارس على اختلاف أديانها تعلم العربية في الكتب القديمة كالأجرومية وابن عقيل والأشمونى والصبان والحريرى ونحوها .

فلما ظهر اليازجى الكبير ^(٢) في أواسط القرن الماضى وقد تكاثرت المدارس النصرانية في بيروت ، قرب الأميركان الشيخ ناصيف منهم وعولوا عليه في تصحيح مسودات ترجمة التوراة وغيرها ، فألف أرجوزته — نار القرى — واختصرها ولده مترجما ، ووضع مقاماته ، مجمع البحرين ، وفصل الخطاب وغيرها ، وأقبل الطلاب على دراستها . . .

ثم ظهر أحمد فارس الشدياق فنظر في اللغة نظراً تحليلياً ، ووضع كتابه "سرّ الليال في القلب والإبدال" على نسق جديد سرد فيه الأفعال والأسماء الأكثر تداولاً ورتبها بالنظر إلى التلفظ بها لإيضاح تناسبها وتجانسها لفظاً ومعنى . وألف كتاب "الغاريق أو الساق على الساق" على أسلوب جديد في اللغة العربية ، وبعد انتشار مذهب النشوء والارتقاء ^(٣) أصاب علوم اللغة شىء منه فتولد علم الفلسفة اللغوية ^(٤) وتولد أيضاً علم تاريخ آداب اللغة العربية ، ومداره النظر في اللغة العربية باعتبار أنها كائن حى قابل للارتقاء بالنمو والدثور . وانصرف مترجما الشيخ إبراهيم إلى النظر في كتب أبيه واختصارها كما سنبين ذلك قريباً . وقام في

(١) « آداب اللغة العربية » ج ٤ ص ٢٥٥ طبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩١٣ .

(٢) هو الشيخ ناصيف اليازجى والد المترجم له .

(٣) نشر فيه مجلدين الدكتور شبلى الشميل وطبعاً في مصر في مطبعة المقتطف .

(٤) ظهر أول كتاب « الفلسفة اللغوية » سنة ١٨٨٦ في بيروت لمؤلفه جرجى زيدان ، ثم

ألف في الفلسفة اللغوية الأستاذ جبر ضومط واسم كتابه « الخواطر » .

بيروت وفي لبنان قاطبة نهضة جديدة بفضل البستاني والأسير واليازجيين والأحذب وغيرهم من رجال العلم والفكر ، وبما بعثه كرنيليوس فاندليك ^(١) من روح علمية في أفتدة النشء ، فقد عمد إلى ترجمة كتب العلوم ككتاب « النقش في الحجر » في سبعة أجزاء ، و « الخلاصة الوافية في الجغرافية » إلى غير ذلك .

٣ - الحركة الفكرية

أقبلت النهضة تنهذى على أجنحة الفكر وحب الاقتداء بالغرب ، والشعر على جموده لم يتغير فيه شىء يذكر ، لأن عوامل المدنية الحديثة ، لم تكن قد انتشرت بعد ، فلم تستنبت في الأحوال الاجتماعية ما يؤثر في القرائح والعقول ، أو يتناول أقلام الكتاب ، وقل الأمر نفسه في النثر ، على أن الشعر سبقه في النهوض والاتجاهات الجديدة ، فبعد سنة ١٨٦٠ م ترك الناس في لبنان قراهم ووجهتهم بيروت ، وقدمها كذلك أناس من دمشق وغيرها ، وأقبل الفرنجة مرسلين وتجاراً وبثوا مذاهبهم وتعاليمهم في المدارس والأسواق ، فدخل الشعر شىء من صبغة المدنية الحديثة والخيالات الشعرية التي تأثرت بها القرائح بوساطة المهاجرة أو مطالعة كتب الفرنجة الشعرية ، أو بما حدث في مصر ولبنان من مظاهر المدنية وأسباب الحضارة الحديثة .

وتمشت روح الحرية الشخصية في النفوس بشيوع العلم الطبيعى وغيره ، فكان داعية إلى حل القيود المتوارثة في الاجتماع والأفكار وفي جعلتها القيود الشعرية فتبدلت أساليب نظمها وطرق التصور والأخيلة ، وظهر غير واحد من الشعراء يقلد الأساليب الفرنجية وصفاً وغزلاً وقصة ، فكان لنا عدا الشعر الغنائى ، الشعر التمثيلى والحكمى والقصى ، ورق شعور الشعراء بتأثير التربية العلمية الحديثة ، فأدركوا من عواطف الإنسان وقواه الشىء الكثير ، وتبين لهم من أسرار

(١) فاندليك : رجل هولندى الأصل أميركى التبعة أتى لبنان فأحبه واتخذ عاداته وألبسته وبعث نهضة حية في القلوب .

قلبه ما لم يعرفه القدماء ، وما ذلك إلا من أثر الثقافة التي أخذوا أنفسهم بها ، فتخلصوا من الاستهلال والجناس وأنواعه ، وصاروا إذا نظموا في غزل أو مدح أو رثاء ، تناولوه رأساً . على أنه بقي قلة من الشعراء المحافظين كانوا يعارضون أساليب القدماء ويتمسكون بطرق النظم في الجاهلية وما بعدها .

وإنه لمن الخير لنا أن نسمع رأى مترجمنا في الشعر قال : « معلوم أن الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعاني ، وسلامة الذوق والمبالغة في التنقيح والتأنيب ، فابتدأه على السنة غير أهله مما يزرى به ويفسد رونقه ويسقط مزيته ، بل ربما أفضى إلى دفن كثير من جواهره في صدور أربابه ، لأنه إذا أصبح متداولاً بين أيدي العامة ، وابتدأه من لا يحسنه أنف المجيدون له من انتحاله ، وتجافى كبراء أهل القول عن نزول كنفه » (١) .

أما القول في الذثر فسنبحثه عندما نتكلم عن إنشاء مترجمنا .

الفصل الثانى

الشيخ إبراهيم اليازجى فى عصره

١ - حياته

ولد الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجى فى بيروت فى الثانى من شهر آذار (مارس) سنة ١٨٤٧م فى بيت هو موئل اللغة والأدب ، وتخرج فى مبادئ العلم وأصول اللغة على أبيه ثم قرأ على نفسه ، فنال بجدّه وذكائه الغاية البعيدة ، ونظم الشعر فى ريعان الشباب ، فجاء شعره برهاناً على الإتقان وعلى أنه ورث الخيال عن أبيه ، فرق أدبه وصفا خاطره وتطايرت شهرته فى جودة النظم ^(١) ، فاحتكم إليه فريق كبير من الأدباء وورد عليه من رسائل الشعراء الشئ الكثير ، حتى أصبح مجلسه لا يخلو من بحث شعرى أو أدبى ، على أنه رأى فى ذلك ما يشغله عن سواه ، فهجر النظم وعكف على المطالعة ، ودرس الفقه الحنفى على المرحوم الشيخ محيى الدين الياقنى أحد مشاهير الأئمة فى ذلك الحين ، فنال منه حظاً وافراً .

وفى السنة ١٨٧٢م عهد إليه تحرير جريدة « النجاح » ، فظهر من اقتداره ما بعدت معه شهرته ، وعمد الآباء اليسوعيون يومئذ إلى ترجمة الكتاب المقدس ، فاستعانوا به وفوضوا إليه تنقيح العبارة من حيث الإنشاء والسبك وانتخاب الألفاظ للمعنى المراد ، فكان ذلك سبباً فى درسه اللغة العبرية والسريانية ليلبس عبارة الترجمة المعنى الأصيل بصدق وأمانة .

فصرف فى ذلك الكتاب نحو تسع سنوات يتحرى المعنى ويضع الكلمة اللائقة التى تنطبق على المعنى الصحيح ، فلا يعتورها خلل فكرى أو لفظى .

(١) انظر المنتخبات .

حتى أخرجه بحلة أنيقة على أفضل ما يرجى بلاغة وصوغاً وفصاحة مفردات :
ولا سيما العهد القديم الذى أطلقت له اليد فى تنقيحه ، فبعثت ترجمة حسنة
الديباجة صافية اللغة ناصعة العبارة .

وكان كلما أرهقه تعب الكتابة والتأليف مال إلى الراحة استجماماً ،
فيصرف أوقات فراغه فى الرسم والحفر والموسيقى ، وقيل : إنه كان دون الرابعة عشرة
من عمره حين صنع أول تقويم « روزنامه » عربى ^(١) وقد أولع فى مطلع شبابه
بالشعر ثم ما لبث أن انصرف عنه إلى النثر ، فجال فيه جولات موفقة حتى أصبح
فيه فارساً من أسبق فرسانه وعلماً من كبار أعلامه ، وسارت له بسطة علم وقدم
راسخة فى اللغة بحقيقتها ومجازها ، فبز المتقدمين والمتأخرين فى دراستها وحذقها ،
وتبوأ منصة البيان وجلال الأسلوب ، متفرداً بمعرفة أصولها وفروعها واشتقاق كلماتها
وشواردها وأوابدها ، وصرفها ونحوها وبديعها وبيانها ، وعروضها وقوافيها ، وحزنها
وسهولها ، وأحاط بأخلاق العرب وعاداتهم وأنسابهم ووقائعهم وأخبارهم رواية
ودراية ، فعنت له صاغرة وأنالته عنانها ، فأركض جواد قلمه فى ميدانها ، فجال
وصال وبرع وأبدع ، مستعيناً بتوقد ذهن فطرى وذكرة مرهفة الشعور ، وعت
فاسد وعبت حتى صار حجة يعول عليه ، ومرجعاً فى حل عقد اللغة العربية
وجلاء مبهماتهما ، وهو العارف بموارد الكلام ومصادره ، والبصير بجيده وسفاسفه ،
والطويل النفس فى بحوثه اللغوية ، البعيد غور الحجة ، فلم يتورع عن أن يحمل
حملة عنيفة على كتابات الأقدمين والمحدثين ، فخطأهم وأقام الدليل على سلامة
نقده بالحجج القواطع والبيّنات النواصع ، غير تارك زيادة لمستزيد ، فكان
يصوب سهم يراعيه إلى تلك الخطيئات أو السقطات عن قباب مماء بالشجاعة ،
غير متوار وراء معاقل المخائب ، فيصيب المرمى ، ويرسل مباضعه إلى الجراح الوسخة
العفنة فيشفي المعضل منها غير عابئ بأنين المتألمين ودمدمة المدعين ^(٢) .

(١) « النفائس » الاحتفال بنقل رفات المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى . بيروت مطبعة

النفائس سنة ١٩٠٦ ص ٢٢ .

(٢) « الشدياق واليازجى » للأب أنطونيوس شبل مطبعة بيروت ص ٥ .

٢ - مشاركته في أحوال العصر سياسياً

لم يكن مترجماً حريصاً على اللغة فحسب بل تناول القومية العربية وعمل سبيل إحيائها وإذكاء نارها في قلوب النشء، وكان يرى إلى أن يرى البلاد العربية متمتعة باستقلال تام، رافعة عنها النير العثماني، يدلنا على ذلك انخراطه في سلك الجمعية العلمية السورية التي أنشئت في بيروت سنة ١٨٦٨م فكانت تتلى في اجتماعاتها قصائد عامرة ومقاطع شعرية مثيرة تتحدث بأعجاد العرب.

وفي أول اجتماعاتها دوى أول صوت للحركة العربية والدعوة إلى القومية، فكان صوت شيخنا الذي أنشد قصيدة هز بها أوتار القلوب وحركها لتنظر إلى حاضرها ملتفتة إلى الوراء وما كان لها من مجد تليد وعزّ عريق قال في مطلعها:

تنهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب^(١)
وتجاوب صداها في البلاد العربية عامة، ثم أتبعها بقصيدة ثانية مطلعها:

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس°

وقد تطرق فيها إلى العمام والقلائس والمساجد والكنائس مما حملنا على إغفالها في المنتخبات، ومدارها تحريض العرب على السعي للاستقلال متخذاً الجبل الأسود نموذجاً حياً للاستقلال والدفاع عن كيانه وانسلاخه عن الدولة العثمانية^(٢) ومن قراءة القصيدة «دع مجلس الغيد» نرى نفساً ثائرة آلمها ما غشى البلاد من فساد إداري واجتماعي، آل إلى موجة سأم وكراهية عصفت بالنفوس فتمنت زوال الحكم العثماني.

وقد نشرت القصيدةتان غفلاً من التوقيع، فاهتمت بهما حكومة الآستانة وبأمثالهما وسعت جاهدة لتعرف الناظم فراح سعيها عصفة ربح^(٣). فما تقدم نفهم نزعة

(١) راجعها في المنتخبات.

(٢) «العروبة ومواكبها» قوافل ج ٢ لمحمد جميل بهيم - مطبعة الكشاف بيروت ص ١٥.

(٣) «المختارات السائرة» لأنيس الخوري المقدسي طبع دار العلم للملايين بيروت ص ١٦٣.

الشيخ العربية وحبّه الخالص لها وما كان يجول في خاطره من ميل شديد إلى استقلال البلاد العربية جملة والتفقت من قيود العثمانيين الذين طغوا وبغوا فأيموا النساء ويتموا الأطفال وأفقروا البلاد ، وعقلوا العقول وهشموا الألباب وساروا بالناس ولا سيما العرب كأنهم سائمة .

وصور مترجنا حالة البلاد بقوله « وما عداها من مدن سوريا القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبقَ منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها الآن قرى حقيرة منتشرة في هاتيك الربوع الدائرة ، يأوى إليها شرادم من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبق إلا لتشهد بما تجنيه الحروب من الدمار ، وما يحدثه تفريق الكلمة والشقاق من التباب والبولار » (١) .

وما قدمنا هذا إلا لنبين مشاركة الشيخ إبراهيم في أحوال عصره السياسية ، ومن أحب لغته أحب قومه وسعى إلى رفعهم وإنهاض شأنهم ، واللغة مفتاح سخن الأمم المغلوبة ، فإذا أضاعت لغتها فكأنها فتحت أبواب سجنها بيدها لتدخله .

٣ - أخلاقه وصفاته

كان رحمه الله ربع القامة عصبى المزاج ، حاد الذهن ، ذكى الفؤاد ، سريع الخاطر ، لا يمل مجلسه ، يطرب للنكتة ويضحك ، غفيف النفس ظاهر الأنفة إلى حد الترفع ، شديد الحرص على كرامته ، كثير الإباء ، ولا سيما بما يتعلق بالارتزاق ، يعد مجاملة الناس في الكسب تملقاً ، ولولا ذلك لعاش في سعة وبسطة من العيش ، ولكن القناعة كانت من أكبر أسباب سعادته (٢) ولم يرغب قط في الوظيفة وخدمة الحكومة فقد انتدب في سنة ١٨٨٢م ليكون قائم مقام على مدينة زحلة فرفض (٣) .

ولقد اشتهر بأدبه الرفيع وخلقه الكريم وفسحة رقعة صدره ، وبرصانته وورزانه ، وضنائه بسمعته وكرامته من التبذل والتسفل ، يترفع عن المهاترة

(١) راجع المنتخبات .

(٢) « النفائس » ص ٢٤ .

(٣) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٥ .

والمقاذعة والمخاشنة في مجاهداته ومجادلته ، يحلّ خصمه إجلاله لنفسه ، وينتقد الخطأ محترماً صاحبه ، متجاوزاً هجر الكلام الداعى إلى التنازب والتنافر ، والتقاطع والتدابير ، وجرّ المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . ولعل هذين البيتين يدلاننا على مجمل أخلاقه قال :

ليس الوقعة من شأنى فإن عرضتُ أعرضتُ عنها بوجه بالحياء ندى
إنى أضنّ بعرضى أن يلم به غيرى فهل أتولى خرقه بىدى ؟

٤- برّه بأبيه

لقد أثر عن الشيخ مترجماً أنه كان برّاً بأبيه الشيخ ناصيف مفخراً بأدبه وعلمه ، يؤله أن ينال أحد قلامة ظفر منه ، فقد نظر في كتبه وأصلح الخطأ منها وقال إنه اختصرها ، وقام على شرح ديوان أبى الطيب المتنبي ونسبه إلى أبيه ، لأنه كان قد بدأه ، فلم يرغب فى أن يجعل الفضل فيه لنفسه بل احترام إرادة والده وقد كان شرع يعلق على شعر أبى الطيب ولم يواءمه القدر لإتمامه ، فنظر فيه ابنه مترجماً نظرة صادقة وقام على شرحه وتفسير أبياته المستغلفة ، وأتبعه بنقد أدبى لشعر المتنبي أزال عنه الزيف وطهره من أدرانته ، واحتال له بتصويب ما خالف اللغة وأوضاعها بلغة سهلة جامعة مانعة ، وذكر رائق وحجة دامغة ، وبدليل ما تقدم ننقل ما قال فى نهاية الديوان ^(١) « . . . وكان أبى رحمه الله قد شرع فى تعليق هذا الشرح على هامش نسخة من الديوان بخطه ، كان يشبث فيها ما يعنّ له من تفسير أو إعراب أو شرح بيت تذكرة لنفسه مع ذكر كثير من وقائع النظم وتراجم بعض المملوحين وغيرهم مما يسنح له فى أثناء مطالعته ، إلا أنه لم يتقص فى شىء من ذلك ولا تتبع أبيات الديوان على التوالى ، وخصوصاً المواضع المستغلقة التى تدعو إلى إطالة الروية والاستنباط مما لم يرضه كلام الشراح فيه ، فإنه كان يتجاوزها فى الأغلب ، ويترك موضع الكلام فيها مخرجاً على الهامش ،

(١) « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » . المطبعة الأدبية بيروت ص ٦٢٥ .

كأنه كان ينوي معاودة هذا الشرح والتوفر على إتمامه ، ثم لم يفسح له في الأجل فبقى الشرح على علاقته » ويخلص إلى القول أنه أبقي عنوان الشرح باسم أبيه رعاية لكونه هو الواضع الأصل ، فلم يؤثر أن يتطفل عليه في نسبة الكتاب وإن تطفل عليه في التأليف .

ومما يحملنا على إثبات بره بأبيه علما ما تقدم ، تصديده للردّ على أحمد فارس الشدياق ، وقد خطأ الشيخ ناصيف « والد المترجم » في عروبة بعض كلمات وردت في « مجمع البحرين » من أمثال « الفطحل » و « المرائب » ، والناظر في تلك المناقشة تتجلى له أخلاق الشيخ إبراهيم على صغر سنه وميعة شبابه ، وقد كال له الشدياق السباب ونعته بآلم النعوت وأخبث الأوصاف ، فما كانت غصبة الشدياق إلا لتزيد الشيخ إبراهيم حلماً ، ولسان حاله يردد :

يزيد سفاهة وأزيد حلماً كعود زاده الإحراق طيباً

وقد ترفع عن مقابله بالمثل من السباب والشتائم فما أخذته حدة ولا نزوة^(١) .

٥ - طعامه وشرابه

قضى الشيخ إبراهيم أعوامه الأخيرة متعافياً بطعامه وشرابه ، يتناول في الصباح طعاماً خفيفاً ، ويعكف على العمل ، حتى إذا جاء الظهر ، تغدى ودخن « الشيشة » ، « الأركيلة » ونام وقت القيلولة ، ثم يقضى بقية النهار في عمل لا يتعبه ، فيلاعب بعض معارفه بالزرد ، ويصرف ما تبقى من نهاره بالفكاهات ، وفي المساء يقتصر على كوب من اللبن ثم يستأنف العمل إلى ساعة متأخرة من الليل ، وكان لا يكتب إلا واقفاً أمام منضدة عالية^(٢) .

(١) « الشدياق واليازجي » طبعة بيروت ص ٦ .

(٢) « النفائس » ورواية عيسى إسكندر المعلوف وجرجى نقولا باز والفيكونت دى طرازى .

٦ - مواهبه وقرائحه

كان رحمه الله مصوراً متقناً وحفاراً ماهراً ، وله في الصناعة اليدوية المقام الأول ، والإتقان في كل عمل يعمل به وحركة يأتينا ، فهو متألق في قيامه وقعوده وفي كلامه وملبسه ، وفي مشربه وطعامه ، وفي مشيه كما في شعره ونثره ، في خطه وتصويره^(١) وعلى الجملة فقد كان رجل ثقافة واسعة ، ورجل فن وإتقان، جنوحاً إلى العزلة المثمرة ، حريصاً على كرامة نفسه ، ألياً أنوفاً لا يخاو من كبر وقسوة لاذعة لمن تحرش به على غير حق أو نال منه مغمزاً ، لأنه كان يرى أن قناته لا تغمز لأنه ما كان لينشر ما يكتب إلا بعد روية وإعمال فكر ، ومراجعة ما يخط قلمه غير مرة ، وفي سبيل كلمة واحدة كان يدبج مقالة ليوضح معنى تلك الكلمة .

الفصل الثالث

جوانبُ ابراهيم اليازجي

١- آثاره

تولى كتابة جريدة « النجاح » لصاحبها يوسف الشلفون سنة ١٨٧٢ م وله فيها مقالات رائعة وبحوث مفيدة .

تولى تحرير مجلة « الطبيب » لمنشأها الدكتور جورج بوست الأميركي وساعده الطبيبان بشارة زلزل وخليل سعادة سنة ١٨٨٤ م ظهر منها مجلد واحد لسنة كاملة . وله فيها مقالات رائعة منها « الأمل في اللغوية » .

وظهرت باسمه واسم زميله الدكتور بشارة زلزل مجلة البيان سنة ١٨٩٧ م سنة واحدة .

أما مجلة « الضياء » التي أنشئت سنة ١٨٩٨ م فقد ظهر منها ثمانية مجلدات وهي منار للآداب العربية والبحوث العلمية والمصطلحات اللغوية وانتقاداته من مثل « لغة الجرائد » وأغلاط المولدين وغيرهما . وله « العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب » وهو شرح لديوان المتنبي الذي كان قد بدأه والده الشيخ ناصيف فأتمه وتركه باسم والده احتراماً . طبع في المطبعة الأدبية بيروت سنة ١٨٨٢ م .

واختصر كتابي والده « نار القرى في شرح جوف الفرا » في النحو « والجمانة في شرح الخزانة » في الصرف ، المطبعة الأدبية بيروت .

واختصر كتاب « الجوهر الفرد » وشرحه بكتاب سماه « مطالع السعد لمطالع الجوهر الفرد » طبع في المطبعة الخلصية بالخبرين الأحمر والأسود ثم في مطبعة الآباء اليسوعيين .

وله تنقيح الكتاب المقدس للآباء اليسوعيين .
 وتنقيح « تاريخ بابل وأشور » لجميل نخلة المدور .
 وتنقيح « كتاب عقود الدرر في شرح شواهد المختصر » لشاهين عطية .
 وتنقيح « دليل الهائم في صناعة النائر والناظم » جمعه شاكر البتلوني . بإرشاده
 وضبطه بالحركات الكاملة وبوبه بأسلوب مدرسي .
 وتنقيح « نفع الأزهار في منتخبات الأشعار » جمعه شاكر البتلوني بإرشاده .
 أما كتابه الذي استقل بتأليفه فهو : « نجعة الرائد وشرعة الوارد في
 المترادف والمتوارد » ^(١) في ألفاظ اللغة العربية وتراكيبها ، وضعه في ثلاثة أجزاء
 طبع منه جزءان والثالث لا يزال مخطوطاً .
 وله « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » لا يزال مخطوطاً في دير الآباء اليسوعيين
 في حريصا لبنان .
 و « العقاء » ديوان شعر وبعض رسائله المكتوبة بخطه الفارسي الجميل معظمها
 محفور على الزنك وبعضها بحروف مطبعية ، طبع في البرازيل .
 و « شرح المقامة البدوية » من كتاب مجمع البحرين نشره تلميذه الأستاذ
 جبران النحاس مطبوعاً في الإسكندرية سنة ١٩٤٠
 و « تنبيهات اليازجي على محيط البستاني » طبع في مصر سنة ١٩٣٣ .

٢ - الأشاعر

إن من يطلع على آثار مترجمنا يرى أنه لم يقرض الشعر إلا في إبان الشباب
 وميخته ، ولم يأخذ به نفسه إلا لماماً ، وكان يوليه من الإتيقان والعناية ما كان يولي
 كل أعماله . ولعل انصرافه إلى النشر والتأنيق فيه شغله عن الشعر ولولا ذلك لكان
 له فيه مقام ملحوظ . أولاً يرضيك أن تسمع وصفه الخيال :
 أما الكربي فسلوا عنه الخيال إذا وارته من ظلمات الليل أستار
 يطوف من حولنا حتى يعود وقد أصابه من رشاش الدمع آثار

أولا يطربك ما قال ليكتب على عود :

وعود صفا الندمان قدماً بظله وما برحت تصبو إليه المجالس
تعشقه طير الأراكة أنخضراً وحن إليه ريشه وهو يابس
إلى غير ذلك مما نقله في المنتخبات ، فالناظر في شعره يتبين له أن هبة الشعر لم
تند عنه ، فنظمه يبدو حلواً جميلاً مسبوكةً بلغة أنيقة متخيرة الألفاظ ، فقد
جمع بين السهولة والمتانة ، والركة والجزالة ، والقوة ، فن قوله في ساعة دقاقة :

ومحصية أعمارنا كلما انقضت لنا ساعة دقت لها جرس الحزن
فيا بنت هذا الدهر سرت مسيره فهل أنت دون الناس منه على أمن ؟
ولا أظن إلا أنك واجد الوضوح والسلاسة فيما عرضت عليك من نظمه وما سأعرضه ؛
وله في الشعر آراء كثيرة ، منها ذلك الذى نشرناه له فى الفصل الأول من هذا
الكتاب ، ومنها قوله :

« إن الوزن والتقنية لا يكفیان لصيرورة الكلام شعراً ما لم يكن مستوفياً
للشرائط المعنوية ، حتى يكون شعراً بالمعنى قبل أن يكون شعراً باللفظ » وعلى
الجملة فإننا نرى أن القريض الذى دعا إليه الشيخ هو الذى يخاطب القلب قبل
العقل ، ويرفع النفس إلى انخطافة عقلية تحلق فى سماء الخيال طروبة مرحة ،
وتبعث فيها رفعة أخلاق ، أو نزعة قومية ، ومحبة للوطن الذى لا يعتز إلا بنواغيه
العباقره الذين يمشون به قدماً إلى المثل الأعلى خلقاً ومحبة خالصة ، وأنفة تبعد
الأبناء عن المفاسد والتفرقة .

٣ - الناثر

لعل اتجاه المترجم له إلى النثر كان عن قصد لأنه رأى فى معالجته خيراً لا
يوفره الشعر ، فن قراءة ما اتصل بنا من نثره نرى أسلوبه أسلوب ترسل مسجع فى
رسائله ومقدمات كتبه ومقالاته ، وأسلوباً مرسلاً بعيداً كل البعد عن التعقيد

والمعاظلة في الكلام ، وله فيه استعارات غريبة لم تألفها الآداب العربية ، إلا أنها استعارات جديدة ، كما في وصف الزهرة ^(١) وكلها أفادت اللغة وخدمت الأدب ، وعلى الجملة فهو صبور على قلمه ، خبير بمواقع الكلام ، عارف لفصاحته ، فلا يميل إلا إلى الصحيح الفصيح منه ، وما كان قريباً من الفهم ، وإنك لتحس وأنت تقرأه يجرس ألفاظه ، فجملته مصقولة تطرب الأذن وتجري مع الطبع ، فيرتاح لها الخاطر ، فلا تعقيد ولا خشونة ، وتراه يربط الحمل بعضها ببعضها الآخر ، بعقل راجح ، ومنطق نير رزين راسخ ، فيؤلف جملة فيها تناسق وفيها وضوح وفيها بيان ، وقد رأى الأستاذ فؤاد أفرام البستاني ^(٢) في نثره ما دعاه إلى القول : « لا إخال كاتباً عربياً منذ عهد ابن المقفع وبديع الزمان ، أدرك ما أدركه اليازجي من سر اللفظة المفردة في مجموع الجملة ، ومن سر الجملة في الفقرة ، ومن سر الفقرة في المقال ، هي نظرة الفنان الساهر على بناء الكل نتيجة لتساوق الأجزاء » ^(٣) وقد اختط للنثر خطة جديدة كما ألمعنا فيما تقدم ، وتميز عن معاصريه بأسلوبه الإنشائي الجامع بين المتانة والسهولة ، فضلاً عن صحة العبارة ^(٤) وقد تأثر به كثير من متأدبي عصرنا الحاضر فحاولوا تقليده ، فاستقام أسلوبه لبعضهم وأخفق بعضهم الآخر .

٤ - الصحفي

نشأت الصحافة في لبنان وعليها طابع من الركائكة كان نهاية المطاف للانحطاط الأدبي في العصر العثماني فضلاً عن الأوضاع العامة وألفاظها ، فألقدها من غثائها عبارتها رجال أعلام كانوا في طليعة النهضة ، أمثال أحمد فارس الشدياق والمعلم بطرس البستاني وولده سليم ، وأديب إسحاق ، على أن ذلك النشاط

(١) راجع المنتخبات .

(٢) رئيس الجامعة اللبنانية وأديب لبناني معروف .

(٣) العدد الممتاز من مجلة المسرة سنة ١٩٤٨ .

(٤) « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرى زيدان ج ٤ ص ٢٦٦ .

كان بحاجة قصوى إلى من يسدّد الأقلام ويسد الثلمات التي اتسعت في ما يكتبه الكتاب ، فأنبرى له مترجمنا وكان أول ما أخذ نفسه به هو إصلاح لغة الجرائد ، ورأس المكتابة في جريدة «النجاح» سنة ١٨٧٢م فظهر فيها من اقتداره ما بعدت معه شهرته وتجاوبت أصداؤه في العالم العربي ، وفي عام ١٨٨٤م ، اتفق مع الدكتور بشارة زلزل والدكتور خليل سعادة فأصدروا مجلة «الطبيب» التي أنشأها الدكتور جورج بوست الجراح المشهور في عهده ، فنشر فيها مترجمنا المقالات اللغوية والأدبية مما أثبت علو كعبه في صناعة التحرير والتحرير ، ولم يطل زمن الاتفاق أكثر من عام واحد وتوقفت المجلة المذكورة ، وآنست مبادئ «الماسونية» قلبه فانخرط في سلك أعضائها وأعجب الناس بجراته الأدبية ونزوعه إلى المبادئ الحرة والأخذ بكل جديد عن عقل وفهم وإدراك^(١) .

وكانت نفسه تنوق إلى الصحافة التي كانت مرهقة بقيود ثقيلة في العهد العثماني ، فلم يجد مجالا لأفكاره وآرائه الحرة ، فترك لبنان ووجهته مصر حيث الآداب العربية وحرية الأقلام تنشد كاتباً مثله . وفي عام ١٨٩٧م ، أصدر بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل مجلة «البيان» وأعد لها الآلات اللازمة يوم تعريجه على أوروبا ، فجاءت المجلة والمطبعة مثالا للإتقان ، وما لبثت المجلة أن احتجبت وافترق الشريكان^(٢) .

وفي سنة ١٨٩٨م استقل الشيخ إبراهيم بإنشاء مجلة «الضياء» التي اشتهرت بفصاحة العبارة ومتانة الأسلوب ، وبقي يصدرها إلى أن حال الداء دون متابعة الكتابة ، فتركها في نهاية عامها الثامن وهو ينوي العود إليها عند ما يبيل من دائه ، وما كان يعلم رحمه الله أنه الداء الأخير ، ففاضت روحه في «المطرية» من أعمال مصر سنة ١٩٠٦م ونقل رفاته إلى بيروت وأودع جدث الرحمة في محلة الزيتونة في مقبرة الروم الكاثوليك في القبر الذي ضم أباه وأخويه الشيخين حبيباً وخليلاً .

(١) «النفاث» ص ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤ .

٥ - العالم

قلنا إن مترجمنا نشأ على محبة العلم وميل شديد إلى البحث والتنقيب ، فانصرف إلى الدرس والمطالعة حتى أصبح دائرة معارف لغوية وعلمية ، ظهرت في الأبحاث والمقالات العلمية التي دمجها يراعه في مجلته « الضياء » وانتشرت له شهرة واسعة في طول البلاد وعرضها ، واتصلت شهرته ببلاد الغرب فمنحه ملك أسوج ونروج نوطاً في العلوم ، وعين عضواً في الجمعية الفلكية في باريس ، وأنقرس ، والسلفادور ، وله مباحثات شهيرة مع الفلكي الفرنسي المشهور فلاديماريون ، وطبع ما عرضه على الجمعية الفلكية في باريس في مجلة أعمالها وفي مجلة « الكوزمس » المشهورة ، وذلك مما بعث به إلى المسيو كاميل فلاديماريون الفلكي سنة ١٨٩٣ م . وقد عربته جريدة الأحوال البيروتية ^(١) بعنوان « مآثرة علمية وطنية » .

قالت مجلة « الكوزمس » : ونزيد الآن أنه بينما كانت المس كلرك مهتمة بعرض هذه الطريقة كان عين ما خطر لها قد تمثل بفكر عالم عربي من ذوى الشهرة ، وقد أثبت ما بدا له من ذلك في فقرة من رسالة عرضها علينا حضرة أغناطيوس الحمصي وهي هذه : قال اليازجي : « من المعلوم أن الشمس في اختراقها الفضاء تقطع بنا مسافة ٢٤٠ مليون كيلو متر في السنة ، وهي مسافة تباع ما يقرب من أربعة أخماس قطر فلك الأرض . وبما أن الشمس مستمرة الاتجاه في خط واحد فإن هذه المسافة تزداد في كل سنة ضعفاً بحيث يمكن على تولى السنين أن تمتد إلى ما لا نهاية له . وإذا كان ذلك أفلا يمكن أن يستخدم فلك الشمس عينه عوض قطر فلك الأرض قاعدة لزوايا أبعاد النجوم ؟ فإن لم يكن ثمة ما يعترض صحة هذا الرأي كان فيه ولا ريب أعظم فائدة لسبر مسافات أبعد الأجرام الغائصة في أعماق الفضاء » .

(١) « الأحوال البيروتية » العدد الصادر في ١٩ كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٨٩٣ .

وذيلت جريدة «الأحوال» على هذه المقالة المطوّلة النفيسة بما عرضه اليازجي على فلاماريون في ٢٧ تموز (يوليو) سنة ١٨٩٣م قالت: «وهنا لا بأس أن نذكر للقرء أن هذه المسألة تعد من أعلى المسائل الفلكية وأعظمها فائدة بالقياس إلى ما يترتب عليها من النتائج المهمة في مباحث هذا العلم، لأنّ جلّ ما توصل إليه جهد العلماء إلى هذا التاريخ في قياس أبعاد النجوم لم يتجاوز ثلاثين نجماً من أقربها مسافة إلى العالم الشمسي، فإذا اعتدوا هذه الطريقة أهكّهم في عدة سنوات أن يسبروا أبعاد عدد كبير من النجوم التي هي أبعد من ذلك بمسافات، وعلى توالى الزمان يتهيأ لهم قياس مسافات أكثر الكواكب المنبثة في الفضاء» (١).

وكتب أيضاً في مختلف أغراض الكيمياء والفيزياء والطبيعيات والطب، فأظهر في كل منها اطلاعاً واسعاً ونظراً ثاقباً وفهماً بعيداً لشوارد الأمور ودقائقها، وقد نبه إلى فوائد علمية كان قد اكتشفها باختباره وانصبابه على المطالعة والبحث وقد رأيت بحثه في الفلك (٢) مما يشهد له بالام واسع لأحدث النظرات لمعارضته لمختلفها، فأثبتت انقذاح ذهنه الثاقب وفهمه الصائب، وبالإضافة إلى ما تقدم فقد تصدى لمعضلة عجزت دونها قرائح نوابغ الأجيال الغابرة في الرياضيات وهي تسبيح الدائرة فأتى فيها حلاًّ يلامس الصواب (٣).

إن بعض الأدباء ينكر على الشيخ إبراهيم لقب العالم، لأنه لم ينصرف إلى مختبره ويقضى نهاره فيه وراء مجهره صارفاً لياليله في مرصده ويخرج باكتشاف جديد، على أن أولئك المنكرين على الشيخ هذه الصفة لم يقولوا لنا: لم أناله ملك أسوج ونروج نوطاً في العلوم؟ ولم انتدب عضواً في الجمعية الماكية في باريس وأنفرس والسلفادور؟ وهل اطلع على الرسائل المتبادلة بين الشيخ وبين فلاماريون الفاكسي الفرنسي الشهير؟ ويكفي الشيخ شهرة وخلوداً أنه غاص إلى قلب اللغة العربية وحل عقدها وفكّ عقلاها وأساس قيادها للدقائق العلم، فكان

(١) «تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم» لعيسى اسكندر المعلوف. مطبعة دير المخلص

١٩٤٥ ص ٦٧ - ٦٩.

(٢) راجع المنتخبات.

(٣) ومن اشتغل في تسبيح الدائرة وأتى بحل قريب من حل المترجم له الأستاذ هيكل صوايا

البغري اللبناني.

في طليعة رجال عصره المثقفين ، فقد نقل علوم الغرب ونشرها بين أفراد أبناء العربية ، ووضع مسميات عربية فصيحة للمستحدثات الفرنسية منها البرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والمنطاد للبالون Ballon

وينقل لنا عيسى اسكندر المعلوف ^(١) أن الشيخ « صرف حياته في بيروت بين المحابر والأقلام ، بأخلاق دمثة وآداب رفيعة ، زاهداً بديناه ، حسن المحاضرة والأدب الرائع ، منقطعاً إلى عمله ، مبتعداً عن الظهور ، حتى أنه كان يحمر خجلاً إذا قيل له إنك عالم . وكان يأنف أن يخطو خطوة إلى جبر مغرم ، فلما أنعم عليه السلطان العثماني بالوسام المجيدي الثالث تحير وارتبك . ولما عقد مؤتمر العلوم والفنون بعناية الملك أوسكار الثاني ملك أسوج طلبت منه اللجنة مؤلفات والده ومؤلفاته فأرسلها ونال عليها من الملك المذكور وسام العلوم والفنون » .

ألا ليت شعري لو نال أدباء عصرنا بعض ما ناله الشيخ إبراهيم أما كانوا يشمخون بأنوفهم كبراً ويمشون في الأرض مرحاً ، ولا يكلمونك إلا من حالك ؟ ألا فليتنق الله المتقون ولننصف رجال العلم ، وهم في قبورهم مرتاحون .

٦ - الناقد

عرفنا من الفصول المتقدمة ما اجتمع للشيخ من علم صحيح ونظر ثاقب يريه أدق الهفوات فما أخطأ في معرفة مواطن القبح والجمال ، أضف إلى ذلك كله صراحة علمية بريئة ، تحمله على الجهر بما يراه حقاً ، وقد جرى في نقده مجريين :

- ١ - مجرى نقد المفردات وبعض العرباوات .
- ٢ - مجرى النقد الأدبي لبعض الآثار الأدبية ، شافعاً إياها بشيء من الآراء في اللغة العربية والأدب ^(٢) .

أما نقده اللغوي فقد صرف في سبيله جهداً كبيراً لمسناه في مجمل مجلاته التي

(١) « تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٦٩ .

(٢) « تاريخ الأدب العربي » للأب حنا الفاخوري طبعة ثانية منقحة سنة ١٩٥٣ ص ١٠٨٣

مطبعة حريصا لبنان .

قام على تدبيجها وتحبيرها ، فانتقد أباه وانتقد نفسه أيضاً ، وما أحرانا أن نميل إلى رأى الأستاذ فؤاد البستاني فنسمعه يقول : « كان واحداً من أولئك اللبانيين الذين أدركوا أن الحرف يميت وأما الروح فيحيا ، وأن اللغة واسطة للتعبير لا غاية للتبحر ، وأنه مهما سهلت الواسطة ومرنت الأداة تجلى الفكر وبرز في أروع صفاته . ولعل اليازجى - يعنى مترجمنا - كان أبعدهم مدى فى قدر هذه الحقيقة على تبصر فى اللغة وتعمق فى أصول اشتقاقها ، فسهل عليه أن يمهر النهضة العصرية بأداة صحيحة مرنة لها من التقليد روعة القديم ، ومن الابتكار قشابة الحدوث ، أداة كانت تكون كافية لو أخذ الغير على هذه اللغة بالطريق التى سلكها اليازجى فغربوا التعبير من مجالى الحياة ، إذأ لما أفقنا اليوم بعد مرور نصف قرن على محاولات اليازجى فى بعث اللغة مجارية للعصر ، ونحن نكاد نصارع المشاكل نفسها حتى إذا قصر بنا التعبير تأففنا وقلنا : رحم الله الشيخ إبراهيم اليازجى » (١) . وأجل ما نرى عنده من نقد أدبى تذييله لديوان المتنبى (٢) ، فقد حاول فيه أن يظهر علاقة التعبير بالمعنى فى شعر المتنبى فقال : « وما أرى هذا الكلام منه إلا صدى للمشهور وحكاية المتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار وغلب التقليد على صادق الاعتبار ، وإلا فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة فى خفاء تلك المعانى بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارة أخرى متى صورته باللفظ الذى حقه أن يصور به ذهب خفاؤه ومهما كان دقيقاً ، وأشر به الفهم على غير كلفة ولا عناء . والمعانى الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية والقضايا العلمية التى تقتضى دقة نظر وجهد ذهن فى تفهمها ، وإنما هى معان طبيعية تدركها البداة بأدنى رمز (٣) ، ونراه فى شرحه لأبى الطيب قد عارض آراء النقاد القدماء فى تأويل بعض الأبيات العسرة الفهم وتتبع أخطاءهم ، من ذلك قوله فى معنى البيت :

وهب الملامة فى اللذاذة كالكرى مطرودةً بسهاده وبكائه

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨٤ .

(٢) راجع المنتخبات .

(٣) تذييل « العرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب » للشيخ ناصيف اليازجى ، المطبعة

الأدبية بيروت ص ٦٥٤ .

« وهو من مشكل الأبيات التي تتحير في تأويلها أحلام المفسرين وتضلّ في تركيبها بصائر المعربين . وقد أوغل شراح الديوان — أى ديوان المتنبي — في الغوص على معناه فلم يصدروا عنه بغناء ، وركبوا فيه متن التصحيح فنزل بهم على أكتاف الخفاء . قال الواحدى رحمه الله ، قال ابن جنى ^(١) يقول : « اجعل ملامتك إياه في التذاذها كالنوم في لذاته ، فاطردها عنه بما عنده من السهاد والبكاء ، أى لا تجمع عليه اللوم والسهاد والبكاء ، أى فكما أن السهاد والبكاء قد أزالا كراهه فلتزل ملامتك إياه » . ورد عليه الواحدى وقال : « وهذا كلام من لم يفهم المعنى فظن زوال الكرى من العاشق وليس كما ظن ولكنه يقول للعاذل : هب أنك تستلذ الملامة كما تستلذ النوم وهو مطرود عنك بسهاد العاشق وبكائه فكذلك دع الملام فإنه ليس بألذ من النوم ، فإن جاز أن لا تنام ، جاز أن لا تعذل » .

ولا يحط بنا المطاف هنا بل نسير مع الشيخ فنرى كلفه باللغة العربية التي كلف بها وأحبها حباً جمّاً وانكب على تفهمها تفهماً رياضياً بفكر نير ورأى صائب ، فاستوعب ما في المعاجم والآثار الأدبية وما خلفه غير واحد من أساطين اللغة والأدب الأقدمين من الأبحاث ، فتغلغل في مطاوى عبقرية اللغة ، استجلى منها ما لم يسجل لأحد سواه ، فتفتحت بين يديه بكنوزها وأسرارها ، فتصدى لكلام العرب الأقحاح جاهليين وإسلاميين وقدماء ومحدثين ، وقوم من اعوجاج أخطأهم . وحمل حملة صادقة على ناشري « لسان العرب » ^(٢) « وتاج العروس » ^(٣) وأشار إلى ما وقع في ذينك المعجمين من الخطأ الفاضح ، فأرجعه إلى الصواب ، وعارض أيضاً الواضعين وذهب في تبصره دقائق اللغة إلى أبعد مما ذهبها أنفسهما إليه .

ولم يقف الشيخ عند هذا الحد بل تخطاه إلى درس معاني الألفاظ وتراكيبها الأصلية ، وعلاقة أصوات الحروف بالمعاني التي ترمز إليها ، وثنائية الألفاظ وطرائق تفرعها ، مع ما يطرأ على الأصل من قلب وإبدال ، كما أنه بحث في نشأة

(١) الواحدى أحد شراح ديوان المتنبي . وابن جنى أحد علماء اللغة وله كتاب « الخصائص » .

(٢) هو معجم مطول ألفه ابن منظور توفى في حدود سنة ١٣١١ م .

(٣) تأليف الإمام محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسنى الواسطى توفى سنة ١٧٩١ م .

اللغة وقد ماشاها حتى بلغ بها إلى عصره . فوقف يستقرى ما يعرضها من معضلات جسام ، ويجدد في تدليل ما اعتورها من تلك المعضلات ليحفظها من خطر الهدم والاضمحلال ، ويجعلها في مستوى سائر اللغات الحية ، كما يتضح ذلك من قراءة المنتخبات التي نثبها في آخر هذا الكتاب .

والناظر في مجلدات « الضياء » يرى تلك المقالات الضافية التي عالج بها ما أشرنا إليه ، فنشر أمثالا من المستحدثات التي وضعها للدلالة على معاني ألفاظ أعجمية ، واصطلح على وضع علامات لمخارج الأصوات التي لا وجود لها في العربية ليسهل على المترجمين الترجمة وكتابة الأعلام الفرنجية في اللغة العربية . وذكر لي الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف أنه وضع معجماً لغويا بدأه سنة ١٨٧٠ م وسماه « الفرائد الحسان في قلائد اللسان » ثم وقف عن متابعة تأليفه في أثناء تنقيحه الكتاب المقدس ، فعاد إليه سنة ١٨٨١ م بإيعاز مجلة « المقتطف » لوضع معجم مدرسي حديث ، فحال دون إتمامه ازدحام الأعمال وتسارع المنية .

٧ - شهادة رجال عصره فيه

وإليك شهادة كبار أدباء عصره له ، وأول ما نبداً به كلمة المرحوم الشيخ مصطفى لطفى المنفلوطى قال : « هو أكبر عالم لغوى في العصر الحاضر ، واتفق له ما لا يتيسر إلا لقليل من اللغويين من قوة البيان وبراعة الإنشاء ، فهو فخر سوريا خاصة والعرب عامة ، ولو أن الله أبقاه للغة العربية لثالت فوق ما نالت على يده خيراً كثيراً » ^(١) وقال الدكتور شبلى الشميل العالم : « فضل الشيخ إبراهيم في علوم اللغة وآدابها لا ينكر ، وإنما فضله الأكبر في نظرى هو وضع حروف الطباعة ، فقد عمل لذلك عدة أجناس ، ومعظم الحروف الخارجة من معمل سركيس ^(٢) في بيروت والمسماة باسمه والمنتشرة كثيراً في المطابع العربية والأقطار

(١) « النفائس » ص ٢٦ .

(٢) هو المرحوم خليل سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » ومؤسس المطبعة الأدبية ومسبك الحروف في بيروت .

السورية والمصرية والأميركانية هي من صنعه . . . وكان من المحافظين في أمور اللغة. فلا يجب أن يكثر فيها الدخيل من الألفاظ الأجنبية ، وكان يعاني مشقات كثيرة لوضع ألفاظ جديدة للمعاني العربية وكان يوفق إلى ذلك غالباً . غير أن مسلكه هذا كمسلك المحافظين قبله وبعده حتى اليوم لا يعد بالحقيقة حرصاً على اللغة بل هو تضيق لدائرتها ، وهو في العلم اليوم يعد تشريداً لكثرة المستنبطات الجديدة ، وجوب وضع أسماء لها ، ولصعوبة إدراك مدلولاتها حينئذ في اللغات المختلفة ، والمقتبسون لا يعدون من أصحاب البدع فقد جرى على ذلك أسلافهم في الطب والعلم حتى العلوم الأدبية نفسها » (١) .

وقال تلميذه شاعر القطرين خليل مطران : « راعى الشيخ بكمال سبرته ورجاحة عقله وسعة معارفه وإحاطة خبرته بالناس ، فلزمته لزوم المتأدب والمريد زمناً طويلاً ، ولا أبالغ بقولي إنه إذا كان الإنسان في ظاهره وباطنه لا يخلو من العيوب ، فقد كان الشيخ من أقل الناس عيوباً ، بل أقول ولا أبالي عاقبة التصريح على سمته ، إن كل ما تمنيت على الله أن يزيده في مناقبه ومحامده هو خلة العفو ، فقد كان منتقماً لشرفه وشرف بيته ، ينتقم مدافعاً لا مبادئاً ، وإذا ضرب ضرب بتوعدة وتبصر ، ناظراً إلى المقاتل ، وقلماً تصدى لحصم إلا تركه صريعاً جريحاً جرحاً مشفياً ، على أنه لم ينبر لأحد إلا عن عدل وحق » (٢) ويخلص شاعر القطرين إلى القول : « إن للشيخ مذهباً عاماً في الشعر والنثر وسائر ما يتولاه وهو مذهب الإتقان ، لا يخلق جديداً ولكنه يتقن ما يصنعه إلى حد أنك تعزوه إليه وتعرفه بطباعه ، فلم ينظم مرتجلاً ولم يكتب إلا محتفلاً ، وكان التحقيق فيه خلة لم تبلغ من باحث أو عالم مبلغها منه » .

هذه هي شهادة بعض رجال الأدب العربي في الشيخ إبراهيم اليازجي ، وما قالوا فيه إلا بالنسبة قد علموه ورأوه منه مرأى العين ، وإذا كانت هذه شهادة الأهل — وهم ممن ليسوا على الشهادة بمتهمين — فإن شهادة الأجانب تحمل من الدلالة على الفضل والبعد عن التحيز ما يزكى شهادة القبيل والعشير . ولا نجد هنا أصدق ولا أدل على الحق من شهادة العالم المستشرق الإنجليزى الكبير

(١) « النفائس » ص ٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٨ .

مرجوليوت أستاذ اللغة العربية في جامعة أكسفورد ، فقد كان مهتماً بطبع كتاب « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، وكان يدفع تجارب الطبع إلى علماء من العرب ليعاودوها بالنظر ويراجعوها بالفكر ، وكان فيمن دفعت إليهم التجارب المترجم له ، فكتب عنه المستشرق في مقدمة للطبعة الأولى يقول : « وقد تولى قراءة النماذج ” البروفات “ علماء ثقات ، وحجج أثبات ، لا يسع الناشر غير الاعتراف بصنيعهم ، والإقرار بفضلهم ، وجيل خدمتهم ، فقد راجع نحو نصف الكتاب حضرة الشيخ إبراهيم اليازجى ، لعلمه الواسع ، ونظره المدقق ، وقد كانت وفاته في ديسمبر الماضى — مصاب علماء العربية وطلاب دراستها في الشرق بأسره ، ورددت أكثر صحف القاهرة ومجالاتها منعاه ، وأفاضت في التنويه بمناقبه ، وتقدير فضله ومواهبه » .

فقد دلتنا هذه الشهادة — على ما بها من إيجاز — على أن الشيخ إبراهيم كان صاحب علم واسع ونظر مدقق ؛ كما كان مجيئها عقب منعاه دليلاً على عظم المصاب فيه ، وكثرة الحسارة بموته ، مما جعل الصحف والمجلات تفيض في الإشادة بمناقبه ، وتقدير مواهبه .

وننتع هذه الشهادة بأخرى أدلى بها العلامة يوحنا ورتبات في الحفل الذي أقيم ببيروت في ١٣ مارس سنة ١٩٠٧ م لتأبين الفقيد ، فقد انتدب العلامة لرياسة الحفل ، فقام نائب عنه يتلو كلمته التي يقول فيها : « لم يكن لى معرفة كبيرة أو علاقة شديدة بالمرحوم الشيخ إبراهيم اليازجى الذى أقمت لذكره هذا المأتم ، غير أن كل ما رأيته فيه أو سمعته عنه ، وقرأت مما كتبه يؤدى إلى اليقين أنه كان من كبار العلماء باللغة العربية وآدابها ، شاعراً مجيداً ، وكاتباً بليغاً . وأنه كان من أهل الفضل العظيم فى رفعة النفس ، وسلامة النية ، وطهارة الحياة . وكان — على ما بلغنى — مستغنياً عن الناس يختار عيشة البساطة والقناعة والفقر ، لا يطلب ولا يرضى مساعدة أحد ، وإن مسرات حياته لم تكن فيما تطلبه العامة بل فى ما يجده العالم فى عالم العقل ، أى فى الدرس والتفكير والكتابة ، فهو جدير حقاً بهذه الذكرى التى الإكرام فيها له ولكم أيضاً » .

٨ - منزلته في عصره

من مجمل ما قامنا نرى أن عظمة الشيخ ما قامت إلا على أنه صاحب رسالة آمن بها ، فوهب لها حياته بصدق وأمانة وإخلاص ، وآثر أن يعيش عيش الكفاف ضارباً كشحاً عن زخرف الدنيا والمصانعة ، غير ملتفت إلى مال أو غنى أو منصب أو جاه ، وقد حرص كل الحرص على إنجاز تلك الرسالة ، باذلاً في سبيلها راحتته وصحته ، وقد هزىء بما اعتراه من داء وضعف وهزال ، ولولا ما بذله من جهد وقامه من تضحيات لما تمها لنهضتنا هذه وما سبقها من اقرار ثغر وطريق معبد قام على تذليل صعابه بنفسه متفرداً معتصماً بالصبر ، يسهر الجفن وراء شاردة ، فما تنله عنه ، ويحيي النهار ناشراً وكاتباً ومعلمًا ، فسهل حروف الطباعة وتخرج عليه أساتذة أعلام بثوا روح التقدم والعلم والمعرفة أمثال : تقلا وعبد الله البستاني وتحليل مطران وغيرهم كثير ، ومن لم يتلمذ عليه حيا تتلمذ عليه ميتاً بما اختصره من كتب أبيه وبما نشره في مجلاته ، وكفى أنه سار بالصحافة سيراً رفيعاً مطمئناً صادقاً ، فرفع قاهر اللغة بعاء انحطاط بإنشاء لبق لا يعتوره ركافة ولا يتخلله تعقيد ، فكان في طليعة الذين أسسوا النهضة ومشوا بها إلى الأمام ، وقد رسم خطاه غير واحد من الكتاب والعلماء والشعراء .

وهو وإن لم يترك لنا آثاراً قلمية جمة فقد ترك لنا مصباحاً نستضيء به ونسلك الجدد فنأمن العثار ، فقد ألقى في روعنا محبة البحث والتحقيق والتدقيق ، والحرص على لغتنا التي رفع منارها وأعلى شأنها وألحقها بأرق اللغات الأوروبية في جميع العلوم العصرية ، فنبه الكتاب إلى وجوب انتقاء الكلمات العربية المحض وانتقد خطأهم اللغوي انتقاداً عنيفاً ، وانتقى كثيراً من الألفاظ الاصطلاحية للمخترعات الحديثة كالسارى لقضيب الصاعقة ، والمنطاد للبالون ، والبرق والبريد للتلغراف والبوسطة ، والبطاقة للكارتر ، والجريدة للجورنال ، وما إلى غير ذلك من الألفاظ الجارية على ألسنة كثير من الأدباء .

إلى هنا نمسك القلم سائلين لمتربحن الرحمة كفاء إحسانه لنهضتنا ، وتدريبنا

على سلوك النهج القويم في المحافظة على أساليب العربية ، وقد غرس حبها في صميمنا ، وعرفنا إلى رجال أعلام من أئمتها بفضل اصطناعه أمهات الحروف للمطابع التي توافرت لها مادة الطبع ، فأعطتنا من تراث الماضي ما كان مدفوناً في الخزائن رهن الأرضة .

فعمسى أن تكون دراستي هذه دافعاً يدفع المطالع الأديب إلى دراسة العربية دراسة صحيحة وافية لا تشينها رطانة ولا تعتورها ركافة ، ويرى الفائدة المرجوة من المختارات النثرية والشعرية ، فأكون قد وفيت قسطاً ولو ضئيلاً من الوفاء لشيخنا وإمامنا إبراهيم بن ناصيف اليازجي ، ولا ريب أن فضله على اللغة العربية وأبنائها جم ، وعلى بعث النهضة عيم ، وعلى إحياء القومية العربية في صميم الأفتدة عظيم .

الفصل الرابع

منشجات من آثار إبراهيم اليازجي

١ - إبراهيم اليازجي الشاعر

١ - في المدح

السماك الأعزل

قال يملح صبحى باشا أحد وزراء الدولة العثمانية :

هَذَا وَزِيرُ الْمُلْكِ ذُو الشَّرَفِ الَّذِي أَزْرَى الثَّرِيًّا وَالسَّيِّئَ الْأَعْزَلَ (١)
أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ الْمَذْلُوقِ نَفْثَةً فِي كُلِّ مَعْظَمَةٍ وَأَفْتَكُ مَقْتَلًا (٢)
وَأَسَدٌ مَنْ عَرَكَ الْأُمُورَ تَصَرُّفًا فِي حِينٍ لَا يَجِدُ اللَّيْبُ مُعَوَّلًا (٣)
وَلَى الْبِلَادَ فَكَانَ فِيهَا عَدْلُهُ ظِلًّا وَكَانَ الْأَمْنُ فِيهَا مَنَهْلًا
أَبَدًا يُرَاعِيهَا بِطَرْفٍ سَاهِرٍ حَلَفَ الْحِفَاظُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَغْفُلَا
فَصَلُّ الْخِطَابِ إِذَا قَضَى وَإِذَا انْبَرَى يَحْكِي بِهِمَّتِهِ الْقَضَاءَ الْمُنْزَلَا
وَإِذَا يَفُوهُ تَأَثَّرَتْ مِنْ لَفْظِهِ دَرَرَتْ تَقْلِدُهَا الْمَعَاصِمُ وَالطُّلَى (٤)
تَهْوَى النُّفُوسُ عَلَيْهِ مِنْ أَطَافِهِ فَتَرُدُّهَا عَنْهُ الْمَهَابَةُ وَالْعُلَى

* * *

(١) أزرى : ارتفع . الثريا : اسم لمجموعة من النجوم . السماك : نجم زير ومنه السماكان الأعزل والرامح نجمان نيران .

(٢) المذاق : الماضي بسرعة .

(٣) عرك الأمور : خبر الأحوال واحتنك بها .

(٤) تقلدها : تتقلدها . المعاصم ما فوق الكف من اليد ، الطلى : العنق .

- حاولت أن أثني عليك فخانني قلمٌ أراهُ غداً بكـ في مِغزَلا (١)
 فرأيتُ مدحك لا تَفِيهِ عبارةٌ ورأيتُ مدحَ الأَكْثَرينَ تَمَحُّلا (٢)
 وعدلتُ تقصيري بوصفك عاجزاً وعلمته فَعَذَرَتْنِي مُتَفَضِّلا
 وعلَّ عَجْزِي في مديحك ناطقٌ عَنِّي بِأَفْصَحَ من ثَنائِ وَأَطوْلا (٣)
 والصُّبْحُ أَوْضَحُ من مِقالَةٍ قائلٍ لَاحَ الصَّبَاحُ إِذَا تَأَلَّقَ وَأُنْجَلِ (٤)

حكمة المعبود

وقال يمدح جلالة أوسكار الثاني ملك أسوج ونروج ويذكر قدوم أحد أنجاله إلى المشرق سنة ١٨٩٠ م ويشير إلى نوط العلوم والفنون الذي أهدها إليه :

- ملكٌ أَحَلَّتْهُ أُسُوجُ وذَكَرُهُ يَطْوِي من الآفاقِ كُلَّ بَعِيدِ (٥)
 ضَمَّ الصَّفَائِحَ والصَّحَائِفَ في يدِ ضَمَّتْ من الأخطارِ كُلَّ مَجِيدِ (٦)
 فأصابَ في الأملاكِ أَشْهَرَ مَوْضِعٍ وَغَدَا لِأَهْلِ العِلْمِ خَيْرَ عَمِيدِ

* * *

- ولقد سننتَ لِكُلِّ فَضْلٍ مَنَهِجًا بِكَ أَهْلُهُ تَأْتِمُّ هَدَى رَشِيدِ (٧)
 ورفعتَ بَندَ العِلْمِ فَاحْتَشَدَتْ بِهِ الـ عُلَمَاءُ تَحْتَ لَوَائِكِ المَعْقُودِ (٨)

(١) المغزل : آلة لغزل الصوف والقطن خيطاناً .

(٢) التمهّل : طلب الشيء بحيلة وتكلف .

(٣) ثنائى لغة في ثنائى : مدحى .

(٤) تألق : لمع . انجلى : وضح وظهر .

(٥) الآفاق جمع الأفق : ما بعد عن النظر بحيث ترى آخر الفضاء ملاصقاً للأرض .

(٦) الصفائح : كناية عن السيوف .

(٧) المنهج : الطريق .

(٨) البند : العلم واللواء .

نَزَلُوا عَلَى كَنْفٍ كَرِيمٍ عِنْدَهُ نَعَمُوا بِظُلٍّ مِنْ نَدَاكَ مَدِيدٍ^(١)
وَأَنذَرْتَهُمْ شَرَفًا بِهِ سَحِدُوا الَّذِي أَلْفَوْهُ مِنْ نَصَبٍ وَمِنْ تَسْمِيدٍ^(٢)
وَتَعَرَّفَتْ فِيكَ الْعُلُومُ بِأَسْمَاءِهَا فَخَرُّوا لِكُلِّ مَسْوَدٍ وَمَسْوَدٍ

* * *

وَلَقَدْ كَسَانِي حَسَنُ رَأْيِكَ حُلَّةً غَضَّتْ مُحَاسِنُهَا عُيُونَ حَسُودٍ
قَلَدْتَنِي فَخْرًا غَدَا لِي حِجَّةً فَنَاقَلُوا الْبِرْهَانَ مِنْ تَقْلِيدِي
رَسْمٌ رَأَيْتُ بِهِ جَلَالَكَ مَائِلًا فَنَكَصْتُ بَيْنَ مَهَابَةٍ وَسُجُودٍ^(٣)
شَرَفٌ لِيَصْدُرِي وَهُوَ أَرْفَعُ مِنْزَلًا مِنْ أَنْ يَحِلَّ بِلَبَّةٍ أَوْ جِيدٍ^(٤)
فَلَكَ الثَّنَاءُ عَلَى مَدْحَةٍ مَنَعٍ مَا إِنْ يَقَابِلُ فَضْلَهُ بِجُحُودٍ^(٥)
قَصَّرْتُ فِي مَدْحِكَ حَتَّى تَاحَ لِي قَدَرُ الْوَفَا فَنَشِطْتُ بَعْدَ قُعُودِي

* * *

وَرَأَيْتُ رَسْمَكَ فِي أَجَلٍ مَصُورٍ رَسَمْتُكَ فِيهِ حِكْمَةُ الْمَعْبُودِ^(٦)
فَرَعٌ لِدَوْحَتِكَ الشَّرِيفَةِ قَدْ أَتَى مِنْ عَزِّكَ الْمَرْفُوعِ تَحْتَ بُنُودِ^(٧)
رِيَّانٍ تَقْدَمُهُ السَّعُودُ إِذَا مَشَى وَيُخَفُّ مِنْ مَلَأِ السَّمَاءِ بِجُنُودِ

(١) الكنف : الجانب .

(٢) التسميد : السهاد والأرق .

(٣) نكص : رجع وتأخر .

(٤) اللبة : المنحدر ، موضع القلادة من الصدر .

(٥) الجحود : نكران النعمة .

(٦) أى أنه صورة طبق الأصل عن أبيه .

(٧) الدوحة : الشجرة العظيمة استعيرت للأسرة المالكة . بنود جمع البند : العلم واللواء .

شخصتْ لموكبه العيونُ فأبصرتْ بدرًا تألقَ في غمامٍ وفودِ^(١)
 ولقد أقولُ لشعرِ بيروتِ ابتسمُ بلقاءِ أبناءِ الملوكِ الصيدِ^(٢)
 وافاكَ مَنْ طربتْ لمقدمه رُبى لبنانَ فاتشحتْ بديضِ برودِ
 هذا ابنُ أوسكارٍ العظيمِ قد أنجَلتْ بالسَّعدِ غرّةَ نجمه المرصودِ^(٣)
 نعمتْ بشائره المنيّ فتهلّلتْ قبل اللّقاءِ بوفده الموعودِ
 وافيّ فخيّاهُ سهيلُ ورُفرفال نسرُ المجيدِ مصفّقاً في العودِ^(٤)
 هو صفوةُ الشرفِ العريقِ مسلسلًا من عهدِ آباءِ له وجُودِ

ب - في الرثاء

حكم الأقدار

من قوله في صباه يندب أخاه الشيخ حبيباً الذي قضى شاباً وأثرت وفاته في والده فتوفى بعده بزمان قليل :

* * *

سأبكي عليه كلما لاحَ بارقُ رابيةٍ فاستمطرَ الدَّمعَ لانيحةِ^(٥)
 وأنذبُ ما ناحَ الحامُ فهيجتْ بلابلَ قلبي للشجونِ منائحهُ^(٦)

(١) تألق : لمع .

(٢) الصيد جمع الأصيد : الملك وأطلق عليه لأنه لا يلتفت زهوه يمينا ولا شمالا .

(٣) غرة : طلعة .

(٤) سهيل : اسم لنجم . وفي البيت تورية في قوله النسّر يراد به النسّر الواقع وهو اسم لنجم

أو الطائر المعروف .

(٥) لاح : ظهر . الرابية : المرتفع من الأرض .

(٦) الشجون : الأحزان .

« حبيب » شجى قلبى المبرح نعيمه
وأدركنى مالم أكن متوقعا
وإن يك أمسى مفرداً فى ضريحه
« حبيب » له فى الحب عندى موثق
أريحان نفسى أذهب الدهر أنسها
وكنّا يدًا فى الدهر حتى أصابنا
وبوم تلقانى فضيع شؤمه
فأوجع لما صاح بالويل صائحهُ (١)
وذلك أبلى ما تخاف نوائحهُ (٢)
فقد كثرت بين القلوب ضرائحه
تقوم به طيَّ الفؤاد بوارحه
وقرة جفنى بعدك الدمع قارحه (٣)
بخطب تلقانى وإيّاك جايحه (٤)
بقية أيامى بما جرّ نائحهُ

* * *

ولا بدّ للإلفين من يوم فجعة
إذا أمضت الأقدار قاطع حكمها
عليه سلام الله ملاح بارق
تحمّلها الباقي فطالت بوارحه
تضيق على ليث الفلاة مسارحه (٥)
وعاهده غادى السحاب ورائحه

عبرة الأقلام

وقال يرى الأمير محمد أرسلان وقد توفى فى القسطنطينية :

حياة أسر العيش فيها مذمم
وناس بها قلب الخلى مُمْتِم (٦)

(١) شجى : أحزن .

(٢) النوائح جمع النائحة : الباكية على الميت .

(٣) قرة العين : سرورها .

(٤) الخطب : المصاب .

(٥) الليث : من أسماء الأسد .

(٦) الخلى : الخالى من الهم .

- سقت كل قلب كل يومٍ مشارباً
تشاغلَت الألبابُ فيها من الصَّبِي
تبطل كلُّ بالأمانى ولم يزل
وما الأرضُ إلَّا قفرةٌ زارتُ بها
لها كل يومٍ بيننا كلُّ مُنذِر
تَذِيهِنَا بعضاً ببعض فنذنى
خلت دُونها شَمُ الحصونِ فلم تكن
وأصبحَ مَنْ قد كانَ يُرهَبُ بِأَسْهُ
ترابٍ من الأرضِ استوى تحت صورةٍ
سلامٍ على قبرٍ توسدُ تُربهُ
وما كانَ يُغْنى لو تَدانى ودونهُ
لَئِنْ لم تصبُ عيني ثراهُ فَإِنَّ لى
وما جَفَّ دمعى بعده غير أَنَّهُ
نعاه لنا النَّاعى فى كلِّ مَسْمَعٍ
- (١) توهَّم فيها لذَّةٌ وهى عَلَقَمُ (١)
ولم تَكُ أذنى صبوةً حينَ تحلمُ (٢)
يروحُ ويغدو وهو للموتِ مَغْمُ (٣)
أَسودُ المنايا حَوْلنا وهى حَوْمُ (٤)
يُنَادى عَلينا مُسَمِعاً وهو أَبْكُمْ (٥)
وأجفانُنا فى غفلةٍ اللّهُ لَوْمُ (٦)
لساكنها مِنْ غارةِ البَينِ تَعْصِمُ (٧)
يُنَاحُ عَلَيْهِ بعدَ حينٍ وَيُرْحَمُ (٨)
تلوحُ عليها مُدَّةٌ ثُمَّ تُهْذَمُ (٩)
حبيبٌ عَلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ أُسَلِّمُ (١٠)
مِنَ الرَّمْسِ قد أَمسى حِجابُ بُخَيْمِ (١١)
هُنَالِكَ قَلْباً مِنْهُ قد قَطَرَ الدَّمُ (١٢)
يُدْمِجُ خَضراءُ الرُّبى حينَ يَسْجَمُ (١٣)
كلامٌ وَلَكِنْ فى الأضالعِ أَسْنَمُ (١٤)

(١) العلقم : اسم لنبات شديد المראה .

(٢) الألباب : جمع اللب : القلب . تحلم : تصوير إلى الحلم ، الفتوة .

(٣) زارت : صاحت بها الأسود ، والزئير صوت الأسد . المنايا : جمع المنية ، الموت .

(٤) الأبهكم : الأخرس .

(٥) شَمُ الحصون : الحصون العالية . تعصم : تحفظ .

(٦) بِأَسْهُ : شدته وقوته .

(٧) توسد : تمدد .

(٨) الرمس : القبر .

(٩) يسجم : يقطر ويسيل وهو مختص بالدمع وبجابه الماء .

(١٠) المسعم : الأذن .

تَنَوَّحُ عَلَى فَقْدِ الْأَمِيرِ مُحَمَّدٍ
عَزِيزُهُ لَهْ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَدَامَعُ
وَكَمْ مِنْ جُيُوبٍ بَلَ قُلُوبٍ تَشَقَّقَتْ
وَلَمَّا نَعَى فِي أَرْضِ لَبْنَانَ أَوْشَكَتُ
كَرِيمٌ لَهُ مِنْ آلِ رِسلَانَ مُحْتَدُ
وَمِنْ ذَكَرِهِ مَا يَعْجِزُ الدَّهْرَ سَلْبُهُ
أَيَا مَنْ قَضَى فِي غَرْبَةِ الدَّارِ نَازِحًا
رُويْدَكَ مَا لِلصَّبْرِ بَعْدَكَ مِنْ يَدٍ
تَرَحَّلَتْ فِي شَرْخِ الشَّبَابِ مَغَادِرًا
وَمِثْلَكَ مَنْ حَقَّ التَّأْسُفُ بَعْدَهُ
تَنَوَّحُ الْقَوَافِي بَعْدَ يَوْمِكَ حَسْرَةً
وَتَنْدُبُكَ الْأَقْلَامُ مِنْ حَيْثُ رَدَّدَتْ
وَيَبْنِ الْمَذَاكِي وَالسُّيُوفِ مَنَاحَةً
رِجَالُهُ عَلَيْهِ بِالْذِّمَامِ تَتَلَامُ
وَفِي كُلِّ قَلْبٍ جَمْرَةٌ تَنْصَرِّمُ (١)
عَلَيْهِ وَكَمْ مِنْ أَوْجِهٍ فِيهِ تَلَطَّمُ (٢)
جَنَادِلُهُ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَأَلَّمُ (٣)
وَمِنْ نَفْسِهِ مَجْدٌ سَنَى مُعْظَمُ
وَمِنْ شُكْرِهِ فِي كُلِّ ذِي مَنْطِقٍ فَمُ
فَكُلُّ فَوَادٍ نَازِحٌ مُتَصَرِّمُ (٤)
إِذَا مَا اقْتَضَى الصَّبْرُ الْمَصَابِ الْعَرَمَرَمُ (٥)
مِنْ الْحُزَنِ مَا يُوْدِي الشَّبَابَ وَيُهِرِمُ (٦)
وِغَيْرُكَ مَخْلُوفٌ وَمِثْلُكَ يُعْدَمُ
فَتَوْشُكَ نَخْشَى نَثْرَهَا حِينَ تَنْظُمُ (٧)
حَنِينًا وَأَجْرَتْ عِبْرَةً حِينَ تَرْقُمُ (٨)
وَيَبْنِ الْحُجَى وَالْعِلْمَ وَالْمَجْدَ مَا تَمُ (٩)

(١) تنصرم : تتقطع .

(٢) الجيوب جمع الجيب : وهو من القميص الموضع المقور .

(٣) جنادله : جمع الجندل ، الصخر .

(٤) النازح : المبتعد عن داره .

(٥) العرمرم : الكثير انصاحب .

(٦) شرح الشباب : أوله .

(٧) القوافي : القصائد من باب تسمية الجزء باسم الكل .

(٨) عبرة : دمة .

(٩) المذاكي : الخليل . الحجى : العقل . المأتم : مكان الندب على الميت .

أَلَا يَا بَنِي رِسْلَانٍ صَبْرًا لِفَقْدِهِ فَذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ التَّكْرُّمُ
 إِذَا مَا دُفِعْنَا لِلْبَلِيَّةِ مَرَّةً وَلَمْ نَنْتَفِعْ بِالْحَزَنِ فَالصَّبْرُ أَحْزَمُ
 جَرَى قَدْرُ الْمَوْلَى بِمَا شَاءَ وَاسْتَوَى لَدَيْهِ جَزَوْعٌ فِي الْأَسَى وَمُسْلِمٌ (١)
 وَلَيْسَ لَنَا مِنْ مَطْمَعٍ فَاتَ نَيْلُهُ إِذَا كَانَ مَا نَبْغِيهِ مَا لَيْسَ يُغْنِمُ
 وَمَا كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مُؤَخَّرًا يَهُونُ لَدَيْهِ الرُّزْءُ وَهُوَ مُقَدَّمُ (٢)
 وَمَا الْفَرْقُ فِي الْحَالَيْنِ إِلَّا هَنِيئَةٌ تَمُرُّ سَرِيعًا وَالْقَضَاءُ مُحْتَمُّ

ج - في الوصف

الجماد الحى

قال يصف المحرك المائى الذى اخترعه يوسف إيلياس المهندس فى بيروت لما احتفل به فى محلة الجناح سنة ١٨٨٧ م .

عُجْجٌ بِالْجَنَاحِ وَقُلٌّ لِلْيَعْمَلَاتِ قَفَى وَحَيَّهِ بِلِسَانِ الشَّقِيقِ السَّكَلِفِ (٣)
 وَسَرَّحَ الطَّرْفَ فِي مَا فِيهِ مِنْ عَجَبٍ يَلْهُو بِهِ الصَّبُّ عَمَّا فِيهِ مِنْ شَغَفٍ (٤)
 هَذِي هِيَ التَّحْفَةُ الْغَرَاءُ قَدْ بَرَزَتْ لِلنَّاطِرِينَ فَأَرَوْتُ غُلَّةَ اللَّهِفِ (٥)
 مُحَرَّكٌ أَبَدًا يَجْرَى الْحَرَكَهُ بِهِ عَلَى أَتَمِّ نِظَامٍ غَيْرِ مُخْتَلَفٍ
 هُوَ الْحَيَاةُ بِهِ يَحْيَا الْجَمَادُ فَلَوْ يَنَاطُ يَوْمًا بِقَلْبِ الْحَى لَمْ يَقِفِ (٦)

(١) جزوع : فاقد الصبر . والأسى : الحزن .

(٢) الرزء : المصاب .

(٣) اليعملات : جمع اليعملة : الناقاة السريعة . الشقيق : المشتاق . الكلف : المغرم .

(٤) الصب : العاشق . الشغف : الحب الشديد .

(٥) برزت : ظهرت . الغلة : شدة العطش .

(٦) يناط : يربط ويلحق .

به انجلت قدرة الإنسان واتصحت
مزينة الخلف الباقي على السلف
وأصبح الشرق من زهو يحرق به
على المغارب ذيل الفخر والشرف

زهر الياسمين

وقال يصف زهر الياسمين :

انظر لزهر الياسمين وقد بدت
أوراقه في الروض كالغصن الندى
شبهته بقلائد من فضة
سقطت فصادتها سهام زمرد^(١)

الزهرة^(٢)

أولع الشيخ بعلم الفلك فشى به شوطاً محدوداً وقد سره منظر الزهرة وهي معبود الأوائل فقال يناجيها
ويتحدث إليها متسائلاً عما في أرضها من بشر :

قف بي نحى ربها أيها الحادى
فتلك أبياتها في عدوة الوادى^(٣)
قد خيمت باللوى الغربى ضاربة
عليه أطناها من غير أوتاد^(٤)
مقيمة لم تقم إلا على سفر
ما ينقضى بين تأويب وإسار^(٥)
تمشى الهوينى كما مرّ النسيم ضحى
في هودج من شعاع الثور وقاد
يحجب البعد سماها فإن قربت
صدت دلالاً فزادت غلة الصادى

(١) القلائد : جمع القلادة ، طوق من حجر ثمين يوضع في العنق . الزمرد : حجر كريم .

(٢) الزهرة : اسم لنجمة ويدعوها العامة نجمة الصباح ، عبدا الأوائل وقدموا لها القرابين

راجع وصفها نثراً في المختارات .

(٣) الحادى : المنشد وراء إبله . عدوة : منعطف .

(٤) اللوى : منعطف الرمل . أطناها : ما تشد إليه الحيام .

(٥) تأويب : رجوع . إسار : سير الليل كله بلا تعريس أى إقامة في الليل .

يسارق الطرفُ عَيْنَ الشمسِ منظرَها
 حتى إذا هَجَمَتْ في ليلِها ظَفَرَتْ
 فنَبِثْنَا رَعَاكَ اللهُ جَارَتَنَا
 قد انقطعنا فما إِنْ بَيْنَنَا صِلَةٌ
 ولم يكن بَيْنَنَا سَدٌّ وقد ضَرَبَتْ
 ما إِنْ يَنَالُكُمْ للبرقِ منطلقٌ
 وإنما رُسَلْنَا الأنوارُ حَاكِيةٌ
 تُهْدِي لَنَا عَنْكُمْ رَمْزاً تَعُودُ لَكُمْ
 ياليتَ شعري هَلْ تَدْرِين مَوْضِعَنَا
 وَهَلْ رَأَوْا رَكْبَنَا النُّورَىَّ مَنْطَلِقاً
 وَهَلْ أَقَامُوا لَنَا مِثْلَ الَّذِي رَفَعَتْ
 فَذِي هِيََا كِلْكَ الشَّمَاهُ قَدْ شَخَصَتْ
 رَأَوْكَ لِلْحَسَنِ مَعْبُوداً وَمَا وَهْمُوا
 فَالشَّمْسُ مِنْ دُونِهَا حَلَّتْ بِمِرْصَادِ
 مِنْهَا الْعَيُونُ بِلَمَحِ الْمَيْسَمِ الْبَادِي ^(١)
 بَلْ أَنْتِ سَوَّغٌ لَنَا مِنْ عَهْدِ مِيلَادِ ^(٢)
 وَلَا سَبِيلٌ لِلْمَلَّاحِ وَلَا حَادِ ^(٣)
 أَيْدَى الْفَضَا دُونَ لُقْيَانَا بِأَسْدَادِ
 وَلَا يَقْرَبُ مِنْكُمْ سَيْرٌ مِنْطَادِ ^(٤)
 نَارَ الصَّلِيبِ تَبَدَّتْ فَوْقَ أَنْجَادِ ^(٥)
 بِمِثْلِهِ بَيْنَ إِصْدَارِ وَإِيرَادِ ^(٦)
 وَهَلْ لَدَيْكَ رِجَالُ أَهْلٍ أَرْصَادِ؟
 فِي لَيْلِهِمْ بَيْنَ تَصْوِيبِ وَإِصْعَادِ
 أَبَاؤُنَا لَكَ مِنْ تَكْرِيمِ عُبَادِ
 هَامَاتُهَا فِي الذَّرَى أَمْثَالُ أَطْوَادِ ^(٧)
 فَالْحَسَنُ مَعْبُودٌ عَشَاقٍ وَزُهَادِ

(١) هجعت : نامت .

(٢) السوغ : الذى ولد على إثره ولم يولد بينهما .

(٣) الملاح : البحري الذى يشتغل فى سفر البحر .

(٤) ما إن ينالكم : إن زائدة ، أى ما ينالكم . المنطاد : مركب الهواء Ballon

(٥) نار الصليب : أى النار التى توقد يوم عيد ارتفاع الصليب وهو ذكرى استرجاعه من

بلاد الفرس أيام هرقل ملك بزنطية .

(٦) الإصدار : الرجوع عن الماء . الإيراد : الذهاب إليه .

(٧) هاماتها : جمع هامة ، رأس . الذرى : جمع ذروة : قمة الجبل ، أى رأسه . أطواد :

جمع طود ، الجبل .

لعلَّ للأرض هذا الحظَّ عندكمُ
وعَلَّكِ اليومَ خلوّ من مفسدها
أنت الفتيةُ لا تدرين مفسدةً
ضلَّ الجميعُ وتاهوا في غوايتهم
وأصبحَ الزورُ مرفوعَ اللّواءِ بهم
قامَ الخصامُ بما لا يعلمون له
شعبٌ تفاقم في الأجيالِ واضطربتْ
وأنَّها لو علمتمُ دارَ إفسادِ
وإنْ نكنْ قد خلقنا خلقَ أندادٍ^(١)
أينَ المفسدُ من أخلاقِ أولادٍ؟
فما اهتدى حاضرٌ منهم ولا بادٍ^(٢)
وقائلُ الحقِّ موصوفًا بالحادِ
كنها ولمْ تره أبقارُ أشهادِ
به العداواتُ دهرًا بين أكبَادِ

* *

أما كفاكم بنى الإنسانِ شقوتكمُ
وما تعانونَ منْ جهدِ الحياةِ وقدْ
ومنْ تقلّبِ أطوارِ الزّمانِ بكمُ
ومنْ مراغمةِ الأقدارِ طاردةً
ومنْ مُزاولةِ الأرزاقِ بغيثها
ومنْ مكايدهِ الأدواءِ ساطيةً
فما لكم تسعدونَ الدهرَ بعضكمُ
وأنسكمُ للعنايا جدُّ روادٍ^(٣)
أمتْ كوقرٍ ثَقِيلٍ بينَ أكتادٍ^(٤)
كأنما هو حرباءُ بأعوادِ
لكم كتيّارِ يَمِّ حَوْلَ طرادٍ^(٥)
تراحونَ بأقدامِ وأعضاءِ
ومن نوازل لا تُحصى بتعدادِ
لكيدِ بعضٍ به يا شرًّا إسعادِ!

(١) الأنداد : ج ند : المساوى لك بكل شيء .

(٢) الحاضر : ساكن المدينة . البادى : ساكن البادية .

(٣) المنايا : ج منية ، الموت . الرواد : ج رائد ، المسافر ، وتطلق على الذين يزورون

الأقطار بقصد الاستكشاف .

(٤) الوقر : الحمل الثقيل الذى ينوء تحته حامله . أكتاد : ج كتد ، ما بين الكاهل إلى الظهر .

(٥) اليم : البحر . الطراد : آلة حربية بحرية تشبه السفينة .

وإنَّما أرضنا دارُ السَّلامِ لَمَنَ يبغي السَّلامَ ودارُ الحربِ للعادي
وكلُّنا فوقها رهنُ الزَّوالِ فلا أضلَّ بعد الكفى من سعى مُزْدَادِ

د - في الغزل

ما مرَّ ذكرك

ما من أديب إلا وتأخذه رعدة الحب فتحرك قلبه فيجرى ما ينبض به قلبه على أسلأت لسانه شعراً،
وقد حرك شيخنا الحب فقال :

ما مرَّ ذكرك خاطراً في خاطري إلا استباح الشوقُ هَتَمَكَ سرَّائري^(١)
وتصبَّبت وجداً عليك نواظري^(٢) باتتْ بلبيلٍ من جفائِكَ ساهري^(٣)
بلغَ الهوى مَنى فإنَّ أحبَّبتَ صِلْ^(٤) أو لا فدَتَكَ حُشاشتي ونواظري^(٥)
قسماً بِحُسْنِكَ لَمْ أَصَادِفْ زاجراً^(٦) إلا وحُسْنُكَ كانَ عَنْهُ زاجري^(٧)
أوما كفاكَ مِنَ الذی لا قِيتَهُ وَلَهُ كَسَانِي الذَّلْ بَيْنَ معاشری
وضئی يكادُ يَشْفُ عن طیِّ الحشا حتَّى خَشِيتُ بِهِ افتِصاحَ ضمائري^(٨)
أخذت عیونَكَ من فؤادی مَوْثِقاً^(٩) وعلىَّ عهدُ هواكَ لستَ بِغادِرِ^(١٠)
كُنْ كيف شئتَ تَجِدْ مَحَبَّكَ مِنْلِها تهوى على الحالینِ غیرِ مغایرِ
عذَّبْتَ قلبي بالصَّدودِ وإن یکنْ لكَ فیهِ بعضُ رُضی فدونكَ سائري^(١١)

(١) السرائر : ج سريرة ، الضمير أو ما استتر في الذهن .

(٢) وجداً : شوقاً . الخفاء : البعد .

(٣) الحشاشة : حبة القلب .

(٤) الزاجر : الوازع ، المانع .

(٥) الضئى : السقم .

(٦) الموثق : العهد .

(٧) الصدود : الامتناع والابتعاد .

وَأَضَعْتُ عَمْرَى بِالذَّلَالِ وَحَبَّذَا إِنْ صَحَّ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ فِي الْآخِرِ
كَثُرَ التَّقْوَلُ بَيْنَنَا وَتَحَدَّثُوا يَا هَاجِرِي حَاشَاكَ أَنْ نَكَّ هَاجِرِي

هـ — السياسة

تنبهوا واستفيقوا

نظمتها سنة ١٨٦٨م وكانت البلاد العربية بأسرها بقبضة العثمانيين يتحكمون بها وقد غشيها فساد إداري واجتماعي فتمنى الأحرار أن ينفضوا عنهم ذلك النير الثقيل ، ونشرت هذه القصيدة سرا ، فكان لها صدى رددته رقة البلاد العربية ماحل حكومة الآستانة أن تهتم بها فسعت لمعرفة ناظمها فأخفقت ولم تهتد إليه :

تَنْبَهُوا وَاسْتَفِيقُوا أَيُّهَا الْعَرَبُ فَقَدْ طَمَى الْخَطْبُ حَتَّى غَاصَتْ الرُّكْبُ^(١)
فِيمَ التَّعَلُّ بِالْأَمَالِ تَحْدَعُكُمْ وَأَنْتُمْ بَيْنَ رَاحَاتِ الْقَنَا سُلْبُ^(٢)
اللَّهُ أَكْبَرُ مَا هَذَا الْمَنَامُ فَقَدْ شَكَكُمْ الْمَهْدُ وَاشْتَاقَتْكُمْ التُّرْبُ^(٣)
كَمْ تُظْلَمُونَ وَلَسْتُمْ تَشْتَكُونَ وَكَمْ تَسْتَفْضُونَ فَلَا يَبْدُو لَكُمْ غَضَبُ
أَلِفْتُمْ الْهُونَ حَتَّى صَارَ عِنْدَكُمْ طَبْعًا وَبَعْضُ طَبَاعِ الْمُرِّ مُكْتَسَبُ
وَفَارَقْتَكُمْ لَطُولِ الذَّلِّ نَخْوَتُكُمْ فَلَيْسَ يُولِيكُمْ خَسْفٌ وَلَا عَطَبُ^(٤)
لِلَّهِ صَبْرُكُمْ لَوْ أَنَّ صَبْرَكُمْ فِي مَلْتَقَى الْخَيْلِ حِينَ الْخَيْلُ أَتْصَرَبُ
كَمْ بَيْنَ صَبْرِ غَدَا لِلذَّلِّ مَجْتَلِبًا وَبَيْنَ صَبْرِ غَدَا لِلْعُرِّ يَجْتَلِبُ

(١) طمى : زاد وارتفع . الخطب : المصيبة .

(٢) القنا : الرماح . سلب : مسلوبون وحقق مضاع .

(٣) المهد : سرير الطفل . اشتاقتكم التراب : اشتاقت إليكم المقابر .

(٤) النخوة : الشجاعة . خسف : ظلم .

فَشَرُّوا وَانْهَضُوا لِلأَمْرِ وَابْتَدَرُوا
 لَا تَبْتَغُوا بِالْمَنَى فَوْزاً لَأَنفُسِكُمْ
 خَلُّوا التَّعَصُّبَ عَنْكُمْ وَاسْتَوُوا عُصَباً
 هَذَا الَّذِي قَدْ رُمِيَ بِالضَّعْفِ قَوَّتَكُمْ
 وَسَلَّطَ الْجَوْرَ فِي أَقْطَارِكُمْ فَغَدَتِ
 وَحَكَمَ الْعِلَاجَ فِيكُمْ مَعَ مَهَانَتِهِ
 مِنْ دَهْرِكُمْ فُرْصَةً ضَنَّتْ بِهَا الْحَقْبُ^(١)
 لَا يَصْدُقُ الْفَوْزُ مَا لَمْ يَصْدُقِ الطَّلُبُ
 عَلَى الْوِثَامِ لِدَفْعِ الظُّلْمِ تَعْتَصِبُ^(٢)
 وَغَادَرَ الشَّمْلَ مِنْكُمْ وَهُوَ مَنْشَعِبُ^(٣)
 وَأَرْضُهَا دُونَ أَقْطَارِ الْمَلَا خِرَابُ
 يَقْتَادِكُمْ لِهَوَاهُ حَيْثُ يَنْقَلِبُ^(٤)

* * *

بِاللَّهِ يَا قَوْمَنَا هَبُّوا لِسَائِنِكُمْ
 أَلَسْتُمْ مِنْ سَطَوَا فِي الْأَرْضِ وَاقْتَحَمُوا
 وَمَنْ أَذَلُّوا الْمُلُوكَ الصِّيدَ فَارْتَعَدَتْ
 وَمَنْ بَنَوْا لَصُرُوحِ الْعِزِّ أَعْمَدَةً
 فَالْكُفُّ وَيَحْكُمُ أَصْبَحْتُمْ هَمَلًا
 لَا دَوْلَةَ لَكُمْ يَشْتَدُّ أَرْزَكُمْ
 وَلَيْسَ مِنْ حَرَمَةٍ أَوْ رَحْمَةٍ لَكُمْ
 فَكَمْ تَنَادِيكُمْ الْأَشْعَارُ وَالْخَطْبُ
 شَرْقًا وَغَرْبًا وَعَزَّوْا أَيْنَا ذَهَبُوا
 وَزَلَزَ الْأَرْضَ مِمَّا تَحْتَهَا الرَّهَبُ^(٥)
 تَهْوَى الصَّوَاعِقُ عَنْهَا وَهِيَ تَنْقَلِبُ^(٦)
 وَوَجْهُ عِزِّكُمْ بِالْهَوْنِ مَنْقَلِبُ^(٧)
 بِهَا وَلَا نَاصِرٌ لِلْخَطْبِ يُنْتَدَبُ
 تَخْفُو عَلَيْكُمْ إِذَا عَضَّتْكُمْ النُّوبُ

(١) ضنت : بخلت . الحقب : جمع الحقبة ، المدة من الزمن ويراد بها السنة تجوزاً .

(٢) عصبا : جماعة . الوثام : الحب .

(٣) منشعب : متفسخ .

(٤) العليج : يراد به الأتراك .

(٥) الرهب : الخوف .

(٦) الصروح : جمع الصرح ، البناء الفخم .

(٧) الهمل : من الحيوان ، المهمل .

٢ - إبراهيم اليازجي الناقد

: - دستور الأدب

سخف وأسف

لم يكن الانتقاد في عصر المترجم له انتقاداً متزنًا يتحرى الحقائق ، بل كان مهاترة وسباباً ، وقدحاً أو مدحاً وتعظيماً ، وما كان الناقد يغوص على فكر المنقود فيظهره بحسناته أو سيئاته . فجاء الشيخ يشق طريقاً جديداً في النقد ، يشكك فيه عن حجر الكلام الداعي إلى التنازع والتنافر والتقاطع والتدابير وجر المرء إلى هبوط منزلته وإخلاق ديباجة وجهه . قال ينتقد بعض الشعراء والأدباء :

انتهت إلينا نسخة من كراسة تحت عنوان^(١) ... تشتمل على مجموع القصائد التي نظمت لحضرة الوجيه الأمل . . . تهنئة له برتبة الوزارة السنية جمعها وطبعها حضرة الأديب . . . وقد تصفّحنا بعضها على قدر ما وسعنا وقتنا الضيق وفسح لنا تراكم الأشغال ، فرأينا فيها من غرائب النظم ، ما استوقفنا وإيم الله^(٢) بين الحيرة والأسف لما تمثّل لنا من تخلف صناعة الأدب في بلادنا السورية مع ما نعلم فيها من زيادة وسائل انتشار العلم وكثرة المدارس والدارسين ، وتمنّينا أن لا يكون ذلك عن تراجع في الفطرة ، وانكاس^(٣) في استعداد السلالة الشرقية التي طالما لمعت أشعة ذكائها في العصور الغواير .

لا جرّم أن مثلاً هذا لمّا تنقبض له صدور الآمال ، ويكفهر^(٤) له محيّا الاستقبال ، وممّا يسجّل على الشرق بتام الانحطاط والاضمحلال ، لولا أننا لم نزل نشاهد من نجابة^(٥) مواطنينا الأعزّاء ونوابغ عقولهم ، حيثما انقلبوا وفي أي

(١) أغفلنا اسم الكراسة واسم جامعها عمداً .

(٢) إيم الله : اسم وضع للقسم .

(٣) انتكس المريض : إذا عاودته الملة بعد النقه والإبلال ، والمراد هنا ، التقهقر .

(٤) يكفهر : يظلم ، والمراد هنا يعبس .

(٥) نجابة : ذكاء .

مأخذٍ شرعوا ، ما يؤيدُ أن شعلة ذلك الذكاء لم تبرحْ تنوقد في فِطْرهم الشفافة وما استبنا منه أن ما ظهر لنا من ذلك التخلف ، لم يكن عن نقصٍ في الغرائز ولا فتور في الذكاء ، وإِنما هو من نقص العلم وسوء التلقين وفقد المنبهين على العثرات والمسددين في طريق العمل ، ممّا سوّل^(١) للقاصر أن يتطاول إلى ما يفوت يده من الغايات ، وأراه طريقَ الفضل سهلاً ، فوطئه وهو لا يدري ما أمامته من المهاوى والعقبات ، فكثرت المتطفلون^(٢) على موائد العلم ، والمجترون على مقامات الشعر والإنشاء ، على حين لا وازع يزع^(٣) ولا هادي يدعو فيتبع .

وما كان أحوج البلاد إلى مسيطرين على أقلام أصحاب الجرائد السياسيّة وصحف الأخبار ، لأنّه إذا خيف من تلك أن تضرّ بالمصلحة الوطنيّة من الجهة السياسيّة ، فإنّ هذه ولا جرم تضرّ بها من الجهة الأدبيّة ، بما تودّى إليه من فساد اللغة التي هي أعظم أركان الوطنيّة ، وأهم روابط الجامعة الأميّة^(٤) .

ومعلوم أنّ الشعر من أعلى طبقات الكلام وأبعدها غاية ، لما يقتضيه من شرف الألفاظ ونباهة المعاني ، وسلامة الذوق والمبالغة في التنقيح والتهديب ، فابتذله على أسنة غير أهله ، ممّا يزرى به ويُفسد رونقه ويسقط مزيته ، بل ربّما أفضى إلى دفن كثير من جواهره في صدور أربابه ، لأنّه إذا أصبح متداولاً بين أيدي العامة وابتذله من لا يحسنه ، أنف^(٥) المحيدون له من

(١) سول : زين ، سهل .

(٢) المتطفلون : من تطفل إذا صار طفلياً نسبة إلى طفيل وهو رجل من العرب كان يأق

الولائم من غير أن يدعى إليها .

(٣) الوازع : الزاجر ، المانع . يزجر يمنع .

(٤) الأميّة : نسبة إلى الأمة .

(٥) أنف : امتنع حية واستكباراً .

انتحاله ، وتجنأ كبراء أهل القول عن نزول كنفه .

وهذا ولا ريب أحد أسباب عقم الشعر في هذى الأيام وانصراف الرغبة عنه إلى النثر الذى لا يحل في حليته^(١) إلا كل من أعطته البلاغة قيادها^(٢) ومملكته الفصاحة عنانها^(٣) ولذلك ترى المتعرضين للشعر أكثر من المتعرضين للنثر حتى في الأعصر الاولى ، وأيام كانت الفصاحة شائعة بين طبقات المتأدبين على العموم . ولقد مر بنا كثير من ركيك الشعر وساقط القول ، ولا سيما في هذى السنين المتأخرة ، التى لم يبق فيها من عرف قاعدة من قواعد الصرف ، أو قرأ ديواناً من دواوين الشعراء إلا تصدى للنظم وطير قصائده في البلاد .

إلا أن جل ما كننا ننكره على أولئك الشعراء ، خلو كلامهم من مبتكر المعانى وجليل الأغراض ، وبعد ألفاظهم عن مقام الجزالة العربية التى هى حلية الشعر ورونقه . ولم نكن نتوهم أن نرى من الشعر ، ما يبلغ أن ينتظم في سلك اللغو^(٤) ويعد ضرباً من التخليط والهذيان ، مما لم نر له مثيلاً إلا في كلام بعض الجرائد عندنا ، مما سبقت لنا الإشارة إليه في غير هذا الموضع .

لا جرم أن هذا من فاحش التأخر بل هو نهاية السقوط والانحطاط . ولولا أن تكون تلك القصائد مطبوعة متداولة بين أيدي المطالعين ، لما كننا نؤثر^(٥) إلا سترها على أربابها تفادياً من هذى المعرة^(٦) الشنعاء .

(١) الحلة : الميدان تتسابق فيه الخيول .

(٢) قيادها : من قياد الدابة ، رسلها .

(٣) العنان : سير اللجام للفرس وهى وما قبلها استعارة بجامع المقدرة .

(٤) اللغو : ما لا يعتد به من كلام وغيره .

(٥) نؤثر : نفضل .

(٦) المعرة : العار ، العيب .

وأما ما هناك من أغلاط اللغة والنحو والوزن والتقنية فأمرٌ يطول الكلامُ عليه ، وليس من قصدنا في هذا الموضع ، وقد امتدَّ بنا نفسَ الكلام إلى ما لا يحتملهُ حالُ هذى القصائد ، ولا تتسع صفحات هذى المجلة [الضياء] للمزيد عليه .

واللهُ يعلمُ أنْ ليس غرضنا فيما أوردناه تشبيط^(١) أقلام أولئك الأدباء وأمثالهم عن الجرى في هذا المضمار ، فإنه ليسرنا أن نرى في قومنا ، مَنْ يهتمُّ بالأدب واللغة ويشغل بالشعر والإنشاء . وهو ولا شكَّ ممَّا تفخر به البلاد ، ويحيا به تمدن الأمة . ولكن لا أقلَّ من أن يكون ما يأتون به صحيحَ التركيب مفهوماً المعنى ، ولا نطالِبهم بالفائق ولا الجيد ، وإلاَّ فقد كانت الأُمِّيَّة أَجملَ وأسترَ . وإنما الذى نتوخاه هنا ، تنبيههم إلى التثبُّت فيما يكتبون ، وأن لا يعجلوا إلى نشر ما يبدُر من قرائحهم ، قَبْلَ تَنْقِيحِهِ وَعَرْضِهِ عَلَى مَنْ يُقِيمُ مِنْ أَوْدِهِ^(٢) أو يَنْبَهه إلى ما فيه من خطأٍ أو لحن^(٣) وإلاَّ فلا أقلَّ من أن يُطْلَعَ الواحدُ منهم صاحبه ، على ما يجود به خاطره ، فإنَّ للمرء في شعرٍ غيره ، نظرةً غير نظرته في شعرٍ نفسه ، وإن لم يكن هذا ولا ذاك ، فليطو ما يَنْظُمُه عن نفسه أَيْاماً حتى يَتَنَاسَاهُ ، ثُمَّ يَعَاودَهُ ، فإنه حينئذٍ يكون نظره فيه كَنَظَرِ الأَجْنَبِيِّ ، ويتنبَّه فيه لأشياء لم يَتَنَبَّه لها حال النظم .

ونمسكُ عنان القلم على هذا القدر ، تفادياً من الملل . واللهُ المسئول أن يسدِّدنا^(٤) جميعاً بهديه ، وهو حسبنا .

(١) تشبيط : تمويق .

(٢) الأود : الاعوجاج .

(٣) اللحن : الخطأ في الإعراب والبناء .

(٤) يسدِّدنا : يرشدنا إلى السداد وهو الصواب والاستقامة .

ب — فى النقد الأدبى

ديوان المتنبى

بعد أن شرح الشيخ ديوان المتنبى نظر فى مجمل شعره ، فخرج منه بالبحث الآتى وفيه من أدب النقد ما فيه :

ومن تفقّد أوائل ديوانه ، رآها كذلك ألواناً تَبَعاً لمقامات الكلام ومراتب المخاطبين ، وكلما أمعن فيما وراء ذلك ، وجد هذا التلوّن فيه أخفى آثاراً وأقلّ عُرُوضاً^(١) ، إلى أن استقلّت طريقه وأقلع عن موقف التقليد . إلّا أنه لم يزل فى ملكته شىء ، من ذلك القديم ، أشبه بعداد^(٢) السليم^(٣) يعاوده حيث يحتفل ، ويقصد الإغراب والمبالغة فى الإحسان ، فيأتى كلامه معقداً بآدى التكلف . ولهذا ترى شعره فى أبى العشائر ، مثلاً ، أسهل أسلوباً وأظهر أغراضاً^(٤) من بعض شعره فى سيف الدولة^(٥) ، مع أنه ، ولا شك ، كان أيام اتصاله بسيف الدولة أعزّر مادّةً ، وأقدر على التصرّف بأزمنة^(٦) الكلام . وانظر إلى قصيدته فى أبى العشائر التى أولها : « أترأها لكثرة العشاق » وقابلها ، مع شعره فى سيف الدولة ، بالقصيدة التى أولها : « رويدك أيها الملك الجليل » مع تدانى^(٧) العهد بين القصيدتين ، ثم انظر إلى قوله فيه : « أيدرى ما أراك من يريب » وقوله : « القلب أعلم يا عذول بدائه » وقوله فى رثاء تغلب بن حمدان : « ماسدكت علّة بمورود »

(١) أقل عروضا : أقل ظهوراً .

(٢) العداد : احتياج وجع اللديغ بعد سنة .

(٣) السليم : اللديغ . ويقال للملدوغ تيمناً بشفاؤه .

(٤) أظهر أغراضاً : أوضح قصداً .

(٥) سيف الدولة الحمدانى أمير حلب وممدوح المتنبى .

(٦) أزمنة : ج زمام وهو رسن الدابة واستعير للقبض على مفردات اللغة وكلمها .

(٧) تدانى : قرب .

وقابل هذه كلها بقوله : « أنا لائى إن كنتُ وقت اللوائى » هى قبل شعره فى أبى العشائر . وإن شئت فتجاوزها إلى ما قبل ذلك وقابلها بقوله : « لقد حازنى وجدٌ بمن حازه بُعدٌ » وأختها وقوله : « أطاعن خيلا من فوارسها الدهرُ » وقوله : « قد علمَ البين منّا البين أجفانا » إلى ما فى طبقة هذه القصائد مما نظمهُ قبل ذلك بزمانٍ طويل ، فإنك ، ولا جرمَ ، ترى هذه أفصح نظماً وأحسن ديباجةً وأبدى أغراضاً ، على دقةٍ فى المعانى وابتكارٍ قد لا تجدُها فى تلك . وذلك أنه ، عند اتصاله بسيف الدولة ، وقف منه ببابٍ حافلٍ بالشعراء والعلماء ، على ما هو مشهورٌ من حال سيف الدولة ورغبته فى الأدب ، حتى يقال إنه اجتمع ببابه منهم ما لم يجتمع بباب أحدٍ من الملوك بعد الخلفاء . وكان سيف الدولة نفسه من الشعراء المجيدين ، وكان يتصدى^(١) للاقتراح على المتنبى والنقد عليه أحياناً بما ذكرنا بعضاً منه فى هذا الشرح . وكذلك كان أكثر بنى حمدان ؛ وقد ذكر منهم الثعالبيّ عدّةً وافرة أورد لهم شعراً فائقاً ، وفى جملتهم أبو فراس ، وهو فى بعض شعره أشعر من المتنبى . وكان المتنبى يتحاماه ويتحرّز من نقده ، وقد نقلنا فى الشرح عند رواية قصيدته التى أولها « واحرّ قلباه » ما كان من مناقشة أبى فراس له ، ولذلك لم يكن للمتنبى بدٌّ من حشد القريحة فى مدائح سيف الدولة ، والإكثار من التحرّى ، والتنطّس^(٢) فى ألفاظه ومعانيه ، والإمعان فى الاحتفال إلى ما وراء طبعه ، حتى تنقلب قريحته صنعةً وبادرتهُ تكلفاً . ثم إذا انتقلت إلى شعره فى كافور ، وجدته قد عاد إلى السهولة والرشاقة ، فأشبه شعره فى أبى العشائر ومن قبله . وشعره فى ابن العميد متأخّر عن شعره فى كافور ، لكنه أشبه بشعره فى سيف الدولة ، لأن ابن العميد كان من مشاهير علماء الأدب وأمرّاء

(١) يتصدى : يتعرض .

(٢) التنطّس : التأنق فى الكلام .

النقد ، وله على المتنبي مأخذ ذكرنا ما تيسر منها في محله . أما شعره في عضد الدولة فأُنزل رتبةً من ذلك كله ؛ لأنه كان يرسل الكلام فيه من فضل القريحة ، لقلة المزاحمين والنقاد ، فلم يكن يتوخى الاحتفال ولا الاختراع إلا ما ساقته القريحة عفواً . لكنه لما نظم فيه أرجوزته التي أولها « ما أجدر الأيام والليالي » عاد إلى دأبه ^(١) الأول من الإغراب ^(٢) والتكلف ، لأنه كان في أراجيزه يقصد محاكاة البدويات ^(٣) ؛ ولذلك ترى كل ماله من هذا النوع معقداً جافى اللفظ والتركيب ، لا يشبه سائر شعره ، ولا عليه شيء من طلاوته وانسجامه .

على أنى لا أقول إن كل ما استعجم من شعر المتنبي وخفى سره يكون سبيله ما ذكر ، بل إذا تصفحت شعر كل شاعر لم تستغن في بعضه عن قدح زناد الروية وإعمال النظر في استبانة المقصود منه لاستعارة غامضة في البيت ، أو كناية بعيدة ، أو إيجاز لا يصرح معه بتمام القالب اللفظي ، أو إشارة إلى المراد من طرف خفي . على أن أغراض الشعر في الغالب تكون أخفى من أغراض النثر ، وأبعد تناولاً ، لانتزاع الكثير منها من الصور الخالية ^(٤) والتمثيل الوهمية ، ولكثرة ما يعرض فيه من الجاز ، على تفاوت ^(٥) مسافته من الحقيقة ، فضلاً عما للشعر من المقامات الخرجة التي تضطر الشاعر تارة إلى إحالة الكلام عن وجهه ، لنزوله به على حكم الوزن والقافية .

(١) الدأب : العادة والشأن .

(٢) الإغراب : الإتيان بالغريب من ضروب الكلام ، أى عويصه .

(٣) البدويات : أى الأراجيز البدوية .

(٤) الخالية : نسبة إلى الخال ، وهو الخيلة المصورة للفكر .

(٥) تفاوت : تباعد .

ومعلومٌ ما كان للفتنبي من سعة التصرف في المعاني ، والاقتدار على الإبداع^(١) والتبسط في جميع أساليب الشعر وفنونه ، والإحاطة بأغراض الحديث وشجونه^(٢) بحيث أنه قلما وقعت واقعةٌ ، إلا ذكرتَ للفتنبي بيتاً تتمثل به فيها ، حتى كأنه كان ينطق بألسنة الحدثنان ، ويتكلم بمخاطر كل إنسان ، ويخطب في كل شأن فلم يكن من العجيب ، مع كثرة معانيه وازدحامها في خاطره ، ومع تبخُّره في اللغة وطول باعه في أساليب المجاز ، أن يقع في بعض كلامه إبهامٌ لا يظهر معه المقصود ، إلا أنه ربما أغرب في ذلك بأن يُوغِل في طرق المجاز ، حتى يفوت السامعَ غرضه ، أو يتفق له المعنى الكبير يحاول إدماجه في اللفظ اليسير ، فيبالغ في الإيجاز ويضيق اللفظ على المعنى ، حتى لا يبقى للنظر إليه مجاز ولا للفكر فيه مجال . فإذا انتهى الشارح إلى مثل ذلك ، لم يتأتَّ له فهم المعنى وتمثيله ، إلا بالتأويل والتبديل والزيادة على لفظ البيت . وربما اضطرَّ إلى الزيادة على المعنى أيضاً بما يتمم صورته ويسدُّ خصاصه^(٣) . وناهيك ما هناك من سعة وجوه الاحتمال ، وضيق مسافة الإشكال ، مما تحار عندهُ بصائر النقاد ، ولا يُقَطَّع في جنبه بمراد . ولعلَّ هذا هو المقصود في قول من ينسب خفاء معانيه^(٤) إلى الدقة والابتكار^(٥) . لكنك إذا تحققت ، وجدت ذلك كله غير خارج عما سبق الكلام عليه من الإبهام في صور التعبير ، ووقوع اللفظ من دون مرعى^(٦) المعنى .

(١) الإبداع : الإيجاد .

(٢) شجون الحديث : أغراضه المتنوعة .

(٣) الخصاص : الخلل .

(٤) أى معانيه البعيدة غور الفهم .

(٥) الابتكار : الإتيان بالشيء الجديد .

(٦) مرعى المعنى : المقصد الذى يرى إليه المعنى .

وتبين للشيخ غموض في شعر المتنبي عندما انتدب نفسه لإتمام الشرح الذي كان قد بدأه أبوه الشيخ ناصيف فأعمل الفكر في الكشف عن هذا الغموض فوفق إلى غرضه غاية التوفيق ، كما يتضح لنا ذلك من قوله :

وإنما الغرض من هذا الفصل الكلام على شعره من حيث هو كلامٌ تراد منه المطابقة بين المسموع والمفهوم ، فأذكر ماله من إجادَةٍ أو تقصير في استخدام الألفاظ ، من حيث هي قوالب للمعاني ، مع بيان الحدّ الذي جرى إليه في ذلك ، ومنزلة شعره من هذا الوجه مما يرجع في الأكثر إلى أدب الكاتب وصناعة اللغويّ ، ويكون مرعىً لنظر علماء المعاني وأصحاب الترسل في صياغة اللفظ وتقديره على المعنى . وهذا مما أَلَمَ^(١) به بعض المتكلمين على ديوانه ، إلا أنهم ، على الغالب ، يشيرون إليه من جانب البحث ، ولم أجد من تفرّغ لإشباع الكلام فيه ، مع أنه لم يشرح هذا الديوان شارحٌ إلاّ خبط في دياجير^(٢) لفظه وهام في تيه تعبيره ، فأخذ بين تقدير وتأويل وتخرّيج وتعليل ، مما يقضى بالنعناء الثقيل ، إلى أن يفرغ منه وفي نفسه منه أشياء . والعجب أن كثيراً من خاصة الناس ، فضلاً عن عامةهم ، ممن يذهبون إلى تفضيل المتنبي على سائر الشعراء ، يرون أنه إنما نال هذه المنزلة وانفرد بالمزية على غيره ، خلفاء معانيه وبعد مآثاها ، وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل ، وأنه بهذا فضل الشعراء وأشير إليه من بينهم بالتبريز^(٣) والسبق ؛ حتى إن الواحدى ، رحمه الله ، مع وفرة فضله وطول باعه في صناعة الأدب وسعة علمه بمذاهب الشعر ، يقول في خطبة شرحه في الكلام على المتنبي ما نصّه : « على أنه كان صاحب

(١) أَلَمَ بالشئ : فهمه وعرفه .

(٢) الدياجير : ج ديجور ، ظلمة والمراد غريب اللفظ وعويصه .

(٣) التبريز : التفوق .

معانٍ مخترعةٌ بديعة ، وإطائف أبكارٍ منها لم يُسبق إليها ، أنيقة ، ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء ، حتى الفحول منهم والنجباء^(١) : كالقاضي أبي الحسن الجرجاني ، وأبي الفتح عثمان بن جنيّ ، وأبي العلاء المعريّ ، وأبي عليّ بن فوزّ جة البرّوجرديّ ، رحمهم الله تعالى ، وهؤلاء كانوا من فحول العلماء ، وتكلموا في معاني شعره ، مما اخترعه وانفرد بالإعراب فيه ، وأبدعه ، وأصابوا في كثيرٍ من ذلك ، وخفي عليهم بعضه فلم يبين لهم غرضه المقصود ، لبعده مرماه وامتداد مداه . . . إلى آخر ما ذكره في هذا المعنى وأشبع القول فيه . وما أرى هذا الكلام منه إلا صدّي للشهور وحكايةً للمتداول ، وإنما سبق السماع فيه الاختبار ، وغلب التقليد على صادق الاعتبار . وإلاّ فليس ما ذكره من دقة معانيه واختراعها هو العلة في خفاء تلك المعاني ، بدليل أنك متى شرحت معنى البيت بما هو أبين من لفظه ، وبعبارةٍ أخرى : متى صورته باللفظ الذي حقه أن يصوّر به ، ذهب خفاؤه مهما كان دقيقاً ، وأشرب به الفهم على غير كلفةٍ ولا عناء . والمعاني الشعرية ليست من قبيل الأسرار الصوفية^(٢) ، أو القضايا التعليمية التي تقتضى دقة نظرٍ وجهد ذهنٍ في تفهّمها وإنما هي معانٍ طبيعية تدرّكها البداة بأدنى رمز . والاختراع ، من حيث هو ، لا يقتضى الخفاء ، وإلاّ لحنى أكثر شعر المتقدمين ممن سبقوا إلى ابتكار المعاني ، مع أنك لا تكاد ترى في كلامهم ما غاص في الإبهام ، وحسرت^(٣) من دونه الأفهام ، إلى الحدّ الذي تراه في بعض شعر المتنبي ، بل متى كان الكلام مُفرّغاً في قوالب من الوضع لا يخرج عنها ، جاريّاً على سُنّة^(٤)

(١) النجباء : جمع النجيب ، الذكى .

(٢) الأسرار الصوفية : التي تؤول على غير ظاهر لفظها .

(٣) حسرت : تعبت .

(٤) السنة : الطريقة .

من التعبير لا يتعدّها ؛ وكانت تلك القوالب وهذه السنّة معروفةً عند السامع ، فقلما يتخلف المعنى عن اللفظ إلا بمقدار ما تحيط به الرويّة ، ويتناولهُ الذهن . ولكن ما ذُكر المتنبّي ، من خفاء المعاني وغموضها ، وارْدٌ على الغالب من قبيل الإبهام في اللفظ ، والتعمية^(١) في صور التراكيب وإلباس المعنى غير ثوبه الذي تظهر به تقاطيعه ، وإزاله في غير منزله الذي يُقرع عليه بابه ، وهي طريقة له اختطّها لنفسه وأكثر من العمل^(٢) لها والنزوع^(٣) إليها . وإذا اعتبرت جملة شعره وجدت ذلك لا يختصّ منه بمواضع الدقة والاختراع ، بل كثيراً ما ترى الأمر ، بعد التحقيق ، ناطقاً بالخلاف واقعاً على العكس ؛ فإنك إذا تفقدت أبياته من هذا الضرب ، وعانيت استخراج ما فيها ، إلى أن يستقيم لك وجهٌ من الأوجه التي يحتملها ، لا تكاد ترى وراء ذلك كبير أمرٍ ، بل قلّ أن ترى له بيتاً قد خفي سرّه وبعُد مغزاه إلّا وهو على الأكثر من ساقط شعره ومُبتذل معانيه ، وكأنّه يحاول أن يخرجّه إلى الإغراب^(٤) ، وشتان بين الإغراب اللفظي والإغراب المعنوي . وربما كان المعنى ، من مثل ذلك ، مسبوqاً فيحاول أن يبعده عن أصله ويغيّر ديباجته بغير لونها فيفسد عليه وكثيراً ما يقع له ذلك من استعمال اللفظ في غير موضع استعماله ، أو حذف شيء في غير مواطن الحذف ، أو تشويش التركيب بالتقديم والتأخير فيما حقّه العكس ، أو زيادة حشو^(٥) يفرّق بين أجزاء المعنى . ولذلك فإنك ترى أكثر هذه النظائر في شعره قد ظهر عليها أثر الصنعة ، وتجاذبها التكلف والتعقّد ، حتى تخرج عن سنن الفصاحة وطريق البداهة إلى

(١) التعمية : عدم الوضوح .

(٢) العمل : التصنع .

(٣) النزوع : الميل .

(٤) الإغراب : الغموض .

(٥) الحشو : الكلام الذي لا معنى له في الجملة .

ما يُدْخِلُهَا فِي الرِّكَائِةِ ، وَيَمِيلُ بِهَا إِلَى اللُّغُو وَالْخَطَا . وَهَذِهِ الْوُجُوهُ وَأَشْبَاهُهَا هِيَ مُورَدٌ أَكْثَرُ مَا يُرَى فِي شِعْرِهِ مِنْ تَلَوْنٍ ^(١) الْإِحْتِمَالَاتِ ، وَاخْتِلَافِ مَذَاهِبِ التَّأْوِيلِ . وَأَنَا أُوْرِدُ لَكَ هَهُنَا بَعْضًا مِنَ الْأَمْثَلَةِ عَلَى ذَلِكَ لِيُعْتَبَرَ بِهَا غَيْرُهَا مِمَّا يُرَى فِي سَائِرِ الدِّيَوَانِ ، ثُمَّ أُوْرِدُ بَعْضًا مِمَّا جَرَى بِهِ عَلَى الضَّدِّ مِنْ ذَلِكَ لِيَتَبَيَّنَ مَوْقِعُ كُلِّ مِنَ الطَّرْفَيْنِ بِصَاحِبِهِ ، كَمَا قَالَ : وَبِضَدِّهَا تَتَبَيَّنُ الْأَشْيَاءُ . فَمِنْ تِلْكَ الْأَمْثَلَةِ قَوْلُهُ :

فَتَى أَلْفَ جِزْءٍ رَأْيُهُ فِي زَمَانِهِ أَقْلُ جُزْءٍ بَعْضُهُ الرَّأْيُ أَجْمَعُ

وَقَدْ رَكِبَ فِي هَذَا الْبَيْتِ ، مِنَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَالْحَذْفِ وَالِإِبْهَامِ ، مَا لَا يَبَاحُ مِثْلُهُ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ ، حَتَّى إِنَّكَ إِذَا حَلَلْتَ تَرْكِيبَهُ النُّحُوَّ ، وَجَدْتَهُ بَاقِيًا عَلَى غَمُوضِهِ ، وَلَا يَظْهَرُ لَكَ الْغَرَضُ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ إِطَالَةِ النَّظَرِ وَإِعْذَاتِ الرُّوْيَةِ . وَصَوْرَتُهُ بَعْدَ الْحُلِّ : هُوَ فَتَى رَأْيُهُ فِي زَمَانِهِ أَلْفَ جِزْءٍ ، أَقْلُ جِزْءٍ مِنْهَا ، بَعْضُهُ الرَّأْيُ أَجْمَعُ . فَتَأَمَّلْهُ . وَإِنَّمَا وَرَدَ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ مَا فِيهِ مِنْ تَدَاخُلِ الْمَعْنَى ، وَطَوَّلَ سِلْسِلَةَ الْأَجْزَاءِ بِسَرْدٍ أَرْبَعَةَ ابْتِدَاءَاتٍ فِيهِ قَدْ أَخَذَ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ ، وَصَارَتْ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ ، وَهَذَا مَا لَمْ يَنْبَغِ عَلَيْهِ عِلْمَاءُ الْمَعَانِي . وَحِينَئِذٍ فَلَا بَدَّ لِلشَّارِحِ ، مَعَ تَأْوِيلِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَجَازِ وَالْكَشْفِ عَنِ الْمُبْهَمِ ^(٢) ، مِنْ تَفْصِيلِ الْمَعْنَى وَتَقْطِيعِ أَجْزَائِهِ ، بَأَنَ يُقَالُ : هُوَ فَتَى ، لَوْ اعْتُبِرَ رَأْيُهُ فِي أَحْوَالِ زَمَانِهِ أَلْفَ جِزْءٍ ، لَكَانَ أَقْلُ جِزْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ ، يَعَادِلُ جِزْءًا مِنْهُ كُلِّ مَا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الرَّأْيِ . وَحَاصِلُ مَا فِيهِ : أَنَّ الْمَمْدُوحَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأَحْوَالِ الدَّهْرِ . وَأَيُّنَ هَذَا الْمَعْنَى مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ وَمَا رَكِبَهُ فِيهَا مِنَ الْمَعَاطَلَةِ وَالتَّكْلِيفِ وَالتَّعَسُّفِ ^(٣) وَكَدَّ ذَهْنِ السَّامِعِ بِتَتَبُّعِ قَوَاعِدِ النُّحُوِّ

(١) تَلَوْنُ الْإِحْتِمَالَاتِ : تَنْوَعُ الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ .

(٢) الْمُبْهَمُ : الْغَامُضُ .

(٣) التَّعَسُّفُ فِي الْكَلَامِ : أَخْذُهُ عَلَى غَيْرِ هِدَايَةٍ .

والمجاز ، والارتباك في حسابٍ طويل لا طائل تحته ، حتى يستخرج منه هذا المعنى المبتذل^(١) .

٣ - إبراهيم اليازجي العالم

١ - في الفلك

القمر

أولع الشيخ بعلم الفلك فدرسه دراسة صحيحة وجرت له مراسلات مع فلاماريون العالم الفلكي الفرنسي وهذا نموذج مما كتبه :

لا جَرَم أن أول ما يَبْدَهُ^(٢) الناظر من مرأى القمر ، وهو في أوان البدر ، وماحواليه ، أنه يراه على خلقة وجه الإنسان ، فيه العينان ، والحاجبان ، والأنف ، والفم ، وذلك بما يتخلل سطحه من المَحْو ، أى السواد المنتشر على وجهه ، بحيث يتبادر منه إلى الخيال هذه الهيئة الغريبة . فهو في ذلك على حدٍّ ما يُتَخَيَّل أحياناً في قِطَع الغيم المتراكمة^(٣) ، من هيئات الأناسي^(٤) والدَّوَابِّ وغيرها ، بما يعرِض لها من اختلاف الأشكال وما يتخللها من الظلال في جنب ما يقع عليها من ضوء الشمس . وهذا المنظر ، في القمر ، يستمر من لدُن طلوعه من المشرق حتى يبلغ الزوال ؛ فإذا مال بعد ذلك وانقلب إلى جهة المغرب ، تبدل منظره ، واستحال إلى صورة رجلٍ قائمٍ على ساقيه ، وقد مدَّ ذراعيه إلى الأمام ، كأنه يدافع بهما . إلا أن كل ذلك إنما يكون في نظر العين المجردة ؛ فإذا نظر إليه ،

(١) المبتذل : المنحط عن رتبة الفصاحة .

(٢) يبداه : يفاجئ .

(٣) المتراكمة : المتكدس بعضها فوق بعض .

(٤) الأناسي : الناس .

ولو بمنظارٍ ضعيف ، انتسخ ذلك بمجملته ، ولم يبقَ له أثر .

ثم إن هذا المحو^(١) ، كما كان سبب تضليل للأمم الأولى ومن بقى على شاكلتها ليومنا هذا من العامة ، فقد كان محلّ حيرةٍ للعلماء وأهل البحث منهم ، وقد اختلفوا في أمره اختلافاً بعيداً ، واختلفوا في ماهيته^(٢) على مذاهب نورد بعضها تفكّمةً للقراء . فمنهم من ذهب إلى أن ذلك ناشئٌ عن شكل القمر وخلقه ، إذ هو مخلوقٌ على هيئة وجه الإنسان ، على نحو ما تقوله العامة ؛ فهو ، عند هؤلاء القائلين ، تمثالُ رأس ضخم بمنزلة رأس أبي الهول مثلاً . وزعم آخرون أنه شبحٌ ما ينطبع فيه من السفليات من الجبال والبحار ، يعنون ما في الأرض من ذلك ، وهذا مبنى على أن القمر جرمٌ صقيل كالمرآة ، بدليل عكسه لضوء الشمس . وقال غيرهم : إنه السواد الكائن في الوجه الآخر منه ، أي النصف المظلم الذي لا يقع عليه ضوء الشمس ، وهو قول من يزعم أن الكواكب أجسامٌ شفافة . وهناك مذاهب أخرى ، لا تقلّ غرابةً عن هذه ، كانوا يقولون فيها بالحدس^(٣) ، وبينونها على قواعد فلسفة ذلك العصر ، مما لا محلّ للإفاضة فيه في هذا الموضع . والصحيح ، وهو الذي يُشاهد بالآلات المعظّمة ، أن بعضه لون الظلّ الذي تلقّيه جباله على وهاده وبساتنه ، وأكثر ما يكون ذلك وهو في أحد التريعين وما إليهما ، لوقوع شعاع الشمس عليه حينئذٍ منحرفاً ؛ والبعض الآخر لون صحاريه ، وما يتخلّل جباله من الأتربة والرمال وبقايا الخلق الدائر^(٤) . وأما في أوان البدر الذي يكون فيه صفّحه^(٥) المواجه لنا مقابلاً للشمس ، وحين يكون ظلّ

(١) المحو : غياب قسم من القمر .

(٢) ماهيته : أصله ونوعه .

(٣) الحدس : التخمين والظن .

(٤) الدائر : البالي .

(٥) صفّحه : جانبه ووجهه الظاهر .

جباله محجوباً عنا بَقَم تلك الجبال أنفسها ، فلا كلام في أنه لون تلك الأتربة .
 أما شكل القمر ، فالظاهر لنا أنه كَرَوَى ^(١) على الجملة ، إلّا أن الذى يستقبلنا منه ، إنما هو أحد صَفَحِيهِ دون الآخر ، إذ هو يوجّه إلى الأرض جهةً واحدةً أبداً ، كما يظهر ذلك بمراقبة مَحْوهِ ، وتنبُّعهِ من أول الشهر إلى آخره . وأما الجهة الأخرى فلا يكاد يُرى منها إلّا الشيء النزر من أطرافها لأسبابٍ ليس هذا موضع بيانها ، ولذلك لا يُعلم شكله من تلك الناحية ، وبالتالي لا يُعلم قُطْرُهُ ^(٢) المسامت ^(٣) لخط النظر . قالوا : وعلة ذلك قوّة جذب الأرض له وممانعتها إياه من الدوران على نفسه إلّا فى القدر الذى يدور به أحد وجهيه حول الأرض ، فتكون له حول نفسه دورةٌ إضافيةٌ يُتمُّها مرةً فى الشهر عند تمام دورته حول الأرض . على أنه قد رُوى أحد أقمار المُشْتَرَى ، وهو أقربها منه ، مستطيلاً من القُطر القائم على السّيار ، فهو أشبه بهيئة البيضة ، وهو أيضاً لا يوجّه إلى السّيار إلّا وجهاً واحداً . فغير بعيدٍ أن يكون قرنا كذلك ، ويكون ما ذكر هو العلة فى وحدة اتجاهه إلى الأرض .

ولما كان القمر يدور حول الأرض ، ويدور معها حول الشمس ، لزم بالضرورة أن يكون القمر تارةً بيننا وبين الشمس ، وهو أوّان المحاق ، فلا تتأتّى لنا فيه رؤيته ، إذ يكون الوجه المستنير منه إلى الشمس ، والوجه المظلم إلى الأرض . وتكون الأرض تارةً بينه وبين الشمس ، وهو أوّان البدر ، وحينئذٍ نرى كل سطحه المستنير لوقوعه فى استقبال الشمس . وتارةً تكون الأرض والقمر متحاذيين على بعدٍ واحدٍ من الشمس ، وهو أوّان الترييع ، فنرى نصف السطح

(١) كروى : بشكل دائرة .

(٢) القُطر : الخط المستقيم الذى يقسم الدائرة ومحيطها .

(٣) المسامت : المساوى باتجاه .

الموجّه منه إلينا لوقوع النصف الآخر في جهة الفضاء. وكما أننا نرى القمر متشكلاً بهذه الأشكال ، فلو وقف ناظر على سطح القمر المواجه لنا ، رأى الأرض كذلك ، أى يراها بداراً عندما يكون القمر في المحاق ، ويراها في المحاق عندما يكون هو بداراً ، وأما في التربيع فالمنظر بينهما واحد حتى يجاوزاه ، فيعود إلى الاختلاف شيئاً فشيئاً ، إلى أن يصير أحدهما بداراً والآخر في المحاق .

الزُّهْرَةُ

لا جَرَمَ أنه إذا كان ، بعد الشمس والقمر ، نجمٌ حَرِيٌّ بالعبادة ، فأحرى النجوم بذلك الزُّهْرَةُ^(١) ، لما أنها أعظم الكواكب نوراً ، وأصفاهن شعاعاً ، لا يدانيها في ذلك إلا المشتري والشُّعْرَى اليمانية ؛ بَيَدَ أنها إذا قوبلا بها عن كَثَبٍ ، كسفت بهاءهما بتألق شعاعهما ، ولا سيما عند مُعْظَمِ نورها ، فإنها تظهر حينئذٍ والشمس في كَيْدِ السماء . وقد عبدها جميع أمم الأرض قديماً . حتى لا تنكاد تبحث في تاريخ أمةٍ إلا تجد لتلك العبادة آثاراً في مسطوراتها ومخلفاتها من هياكل وتمائيل وغيرها . ومن عبدها العرب ، وكان لها معبدٌ بصنعاء^(٢) اليمن ، وهو قصر عُمدان المشهور ، بناءً على اسمها الضحَّاك . ولبت بيت عبادةٍ لها حتى هدمه عثمان بن عفان .

والزُّهْرَةُ ، ولا شك ، أول كوكبٍ عُرف من السيّارة لسرعة حركتها في فلكها ، بحيث إنها لا تثبت مدة أسبوعين في موضع واحد من السماء . وهى تكون تارةً نجم مساءً ، وتارةً نجم صباح . تبعاً لموضعها من الشمس ، لأنها إذا كانت إلى

(١) الزهرة : اسم لنجمة يعرفها العامة باسم نجمة الصباح وقد عبدها الأقدمون وقدموا لها

القرابين وأقاموا لها الهياكل ولا سيما في لبنان .

(٢) صنعاء : عاصمة اليمن .

شرق الشمس ، ظهرت بعد مغيبها في الأفق الغربي ، فكانت نجم مساء . وهي تظهر أولاً لحظةً ، ثم ترتفع يوماً بعد يوم حتى يبلغ معظم ارتفاعها ٤٨ درجة ، وحينئذٍ تلبث فوق الأفق ما يزيد على أربع ساعات ، وبعد ذلك تعود فتَنزِل كما ارتفعت حتى تمر من أمام الشمس ، فتبرز من غربيها ، وتظهر قبلها في الأفق الشرق ، فتكون نجم صباح . وتستمر في الشرق كذلك ، ثم تعود فتبرز^(١) من وراء الشمس في الأفق الغربي ، وهلمَّ جرّاً .

وكانت الزهرة قديماً ، كبقية أخواتها من السيّارة ، تُعتبر مضيفة بذاتها ، لأنهم لم يروا تغييراً في منظرها ، فكانت عندهم في حدّ سائر النجوم الثابت . وأول من خالفهم في ذلك كوبرنيكس الفلكي المشهور من رجال القرن السادس عشر ، فإنه لما بدّل هيئة النظام البطليموسي^(٢) ، جزم بأن السيارات ينبغي أن تكون كراتٍ مظلمة كالأرض ، وأن ما ترسله إلينا من النور ، إنما هو منعكسٌ عن أشعة الشمس . فاعترض عليه بأنه لو كان الأمر كذلك ، للزم أن يظهر كل من الزهرة وعطارد بأوجهٍ مختلفة كأوجه القمر ، ولما لم يسعه البرهان على ذلك من الطريق الحسّي ، بقي قوله مهملاً ، حتى حققه غاليلاي في القرن التالي بعد اختراعه للمِرْقَب^(٣) سنة ١٦١٠م ، فإنه أول ما وجهه إلى الزهرة ، فظهرت له فيها كل رؤى القمر من الهلال إلى البدر .

أمّا بُعد الزهرة من الشمس ، فهو ٧٢٣ من بُعد الأرض ، وفسلكها قريب من الاستدارة التامة ، لأن إهليلجيتها^(٤) لا تزيد على ٠٠٦٨ ، وهي تتم دورتها

(١) تبرز : تظهر .

(٢) البطليموسي : نسبة إلى بطليموس الفلكي اليوناني صاحب كتاب المجسطى عاش قبل الميلاد .

(٣) المِرْقَب : النظارة التي يراقب بها الأجرام السماوية .

(٤) الأهليلجية : أى الاستدارة مع شيء من الطول .

حول الشمس في ٢٢٤ يوماً ، أو سبعة أشهر ونصف ، تقطع في اليوم منها نحو ١ ٨٥٠ ٠٠٠ ميل أو ٢١ ميلاً في الثانية ، فهي أسرع من الأرض قليلاً . إلا أنه لما كانت الأرض مُشايعةً للزهرة في مسيرها إذ كِلتاها تتجهان من الغرب إلى الشرق ، لزم أن لا نراها أتمت دورتها إلّا بعد ٥٨٤ يوماً أو تسعة عشر شهراً ونصف ، وهي مجموع سنتي الأرض والزهرة معاً ؛ غير أنها تخفى نحو خمسة أشهر من هذه المدة تكون فيها محتجبة بأشعة الشمس ، لأنها تقترب منها في كل دورة مرتين ، تخفى في كلٍ منهما نحو سبعة أيام ، نصفها قبل الاقتران ، والنصف الآخر بعده ، وتظهر لنا سبعة أشهر نجم مساءً ، وسبعة أشهر نجم صباح .

وأما بعدها عن الأرض فيختلف كثيراً ، فإنها في الاقتران الأدنى تبعد نحو ٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ميل ، وفي الأعلى تبعد نحو ١٦٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ميل ، وذلك أنها في الوضع الأول تكون بين الأرض والشمس ، فلا يكون ، بين الأرض وبينها إلّا عرض المنطقة الفاصلة بين الفلكين ؛ وفي الثاني تكون وراء الشمس ، فيكون بيننا وبينها مسافة قطر فلكها مع عرض المنطقة المذكورة . ويختلف قطرها العمودي بحسب ذلك ، فيكون بين ٦٥ و ١٠٠ ، إلّا أنها في الحال الأولى تكون في المحاق ، أي يكون الموجه إلينا منها نصفها المظلم ، فلا نراها ؛ وفي الحال الثانية تكون بديراً ، إلّا أن قطرها الظاهر حينئذٍ ، لو أمكن أن نراها ، يكون أقلّ من سدس ما يكون عليه وهي في حال المحاق . ولذلك فإن معظم نورها لا يكون في شيء مما جاورها تين الحاليتين ، ولكن أنور ما تكون عليه إذا بلغ تباينها ، أي بعدها عن الشمس شرقاً أو غرباً ، ٥ ، ٣٩ ° وذلك قبل الاقتران الأدنى ، أو بعده بمدة ٦٩ يوماً ، وحينئذٍ يكون المنور منها ربع قرصها ، فتكون

كانها هلال أربع . ومتى كانت كذلك فقد تُرى في إِبَّان^(١) النهار ، كما سبقت الإشارة إليه ، إلا أن ذلك يختلف فيها بين سنة وسنة ، تبعاً لميل فلسكها ؛ وهي تعود في كل ثمانى سنين إلى الاقتران بالشمس في الموضع نفسه من السماء ، لأنها حينئذ تكون قد أتمت خمس دورات من دوراتها المرئية ، فتعود رؤيتها من الأرض إلى مثل ما كانت عليه في الموعد السابق .

وأما دوران الزهرة على نفسها ، فما اشتغل العلماء وأهل الرصد في تحقيقه زمناً مديداً ، واستخدموا لذلك أعظم المراقب^(٢) ، فلم يحصلوا من معرفته على يقين . وذلك أن ظاهر هذا السيَّار شديد البياض واللمعان ، لا يكاد يبدو عليه ظلٌّ ، ولا تظهر فيه سَمَةٌ واضحة الحدود ، بخلاف غيره من الأجرام^(٣) المتحركة حولنا ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ منها يُرى على سطحه شىءٌ من السواد كالحو الذى نراه على وجه القمر ، فإذا تحركَ الجرم على محوره ، انتقل ذلك السواد من موضعه حتى يخفى وراء الجرم ، ثم يعود من الناحية الأخرى حتى يرجع إلى حيث كان ، فيكون قد تمَّ هناك دورة كاملة ، وبمثل هذا عَيَّنوا الدورة اليومية في السيَّارة^(٤) ، وعرفوا مَيلَ محاورها على سطوح أفلاكها ، ومنه عُلِمَ أن القمر لا يدور على نفسه دورةً مستقلةً . وقد عُنِيَ الراصدون بذلك في الزهرة منذ اخترعت الآلات المقرَّبة ؛ ومن عانى ذلك الفلكيَّ كاسيني ، فإنه بعد جهد المراقبة ، ظهر له شىءٌ من الحو على سطحها ، فبقى يراقبه على أيامٍ متعدِّدة ، فوجده كلَّ يوم يظهر في مثل الساعة من الأمس في مكانه الأول على فرق زهيد تمثِّل له ، فحكم بأنها تدور على نفسها

(١) إِبَّان النهار : أول النهار .

(٢) المراقب جمع المرقب : المنظار الذى ترقب به النجوم « تلسكوب » .

(٣) الأجرام جمع جرم : الكوكب والنجم .

(٤) السيَّارة : النجم المتحرك الذى يدور حول الشمس .

في ٢٣ ساعة و ١٥ دقيقة ، وذلك سنة ١٦٦٦ م . ثم تتبّع العلماء بعدهُ تحقيق ذلك ، فنظر فيه بيانكيّ سنة ١٧٢٦ م فأحصى لها ٢٥ دورة في ٢٥ يوماً و ٨ ساعات ، فخرج لكل دورة ٢٣ ساعة و ٢٢ دقيقة .

وتتابعت الرُّصود من غير هذين ، فكان الخارج متقارباً على فرق ثوانٍ قليلة ، وحينئذٍ حكموا بأنَّ سنتها تكون مؤلفة من ٢٣١ يوماً من أيامها ، وهي السنة النجمية ؛ وأنَّ سنتها الشمسية تكون ٢٣٠ يوماً . ثم راقبوا محور دورانها ، وحدّدوا ميله على دائرة البروج ، فجعله بيانكيّ ^(١) ٧٥° ، وجعله غيره ممن جاء بعده ٥٥° ، وهو آخر ما جروا على اعتباره . وقد بنوا على ذلك مباحث وتفصيل شتى في تعيين المناطق والفصول ، وطول الأيام وقصرها ، وما يتبع ذلك من التفاوت في الحرِّ والبرد ، وحالة الأحياء هناك ، من النبات والحيوان ، إلى غير ذلك من الأحوال المترتبة على هذا الوضع ؛ إلى أن أعلن شيا بارلّي الفلكي الإيطالي سنة ١٨٩٠ م نتيجة مراقباته الطويلة ، فزعم أن هذا السّيار لا يدور على نفسه الدورة اليومية ، ولكنه في دورانه حول الشمس ، يوجّه إليها أحد نصفيه على حدّ حال القمر مع الأرض ؛ وعليه فيكون أحد نصفيه معرّضاً أبداً لأشعة الشمس ، والنصف الآخر في ظلمةٍ دائمة . فكان ذلك مدعاةً للفلكيين إلى معاودة الرصد والتحقيق ، فمنهم من وافق الفلكي المذكور ، ومنهم من نازعه ، وإلى الآن لم يقع الإجماع على رأيٍ في هذه المسئلة الغامضة ^(٢) ، ولا سيما وأن هذا السّيار ، على ما ثبت لهم بالمشاهدة وتحليل الطيف ، يسبح في ضمن حجاب كثيف من جوّه المتلبّد بالأبخرة والغيوم ، بحيث إن أشعة الشمس تنعكس عن هذا الجوّه ، لا عن سطح السّيار . وحينئذٍ فإنَّ هذا الأمر سيبقى محجوباً بحجاب الريب ، إلى أن

(١) بيانكيّ : عالم فلكي فرنسي .

(٢) الغامضة : الصعبة التي لم تعرف .

يَتَلَطَّفُ مَا هُنَاكَ مِنَ الْأَبْجَرَةِ الْمُتَكَاثِفَةِ ، وَيَشِفُّ عَمَّا تَحْتَهُ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا فِي أَلُوفٍ مِنَ السَّنِينَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

ب - في تاريخ العلم

العلوم عند العرب

إن دولة العلم عند العرب كانت دولةً رفيعة العباد ، فسيحة الظلال ، حافلةً بالألوف من الدارسين والباحثين والمصنِّفين ، والعاكفين على الاكتشاف والاستنباط ، والضاربين في مناكب الأرض بحثاً عما أودعتها الطبيعة من الآثار ، والنافضين^(١) لآفاق السماء تطلُّعاً^(٢) إلى ما هنالك من الأسرار . لم يدعوا علماء إلا ولهم فيه يدٌ ، ولا بحثاً إلا ولهم إليه قدمٌ ، فضلاً عما كان فيهم من الخطباء والشعراء والأدباء والكتّاب ، وما كان عندهم من بديع الصنائع وغريب الفنون واتساع التجارة ونمو الزراعة . وكان العلم مصباحاً لجنودهم في كل بلادٍ وطنتها حوافر خيلهم وافتتحوها بسيوفهم ، حتى امتدَّت حضارتهم من أطراف آسيا إلى أقاصى إفريقيا وقلب أوروبا . أجلّ^(٣) ، إن من تتبع العلوم التي كان العرب يتداولونها بينهم ، وجدها بأسرها مقتبسة^(٤) عن كتب اليونان إلا قليلاً اقتبسوه عن كتب الهند والفرس . ولم يثبت أنهم وضعوا علماً ولا أحدثوا في أحد العلوم فرعاً مهماً ، ولكنهم أوضحوا مبهمات^(٥) وسَّعوا مباحثها وصحَّحوا كثيراً من

(١) النافضين : من نفّض المكان ، تبين ما فيه حتى عرفه .

(٢) التطلع : الاستشراق ، أى رفع البصر إلى الشيء وتشوف النفس إلى إدراكه ووروده ، والعامّة وبعض الكتاب المعاصرين يغلطون في استعماله بمعنى النظر إلى كل شيء .

(٣) أجل : كلمة جواب بمعنى نعم .

(٤) مقتبسة : مأخوذة .

(٥) مبهمات : ما صعب وخبى معناه .

مسائلها . ولو لبث الدهر مسلماً لهم إلى هذا اليوم ، لم يبعد أن كانوا بلغوا ما بلغ غيرهم ، ممن تناولوا علومهم وصنائعهم ونزلوا منها منزلتهم . ولسنا نزيد المطالع علماً أن مدة اشتغال العرب بالعلم لم تكن إلا بضعة مئاتٍ من السنين ، كانوا قبلها بقليل أهل نجعةٍ وخيام ، وآلافٍ باديةٍ وأنعام . فما كادوا يألفون تلك العلوم ويتصرفون فيها تصرف أهلها ، بعد أن قضوا السنين الطوال لا يزيدون على تفهّم مغازيها وحلّ مشكلاتها ، حتى اضطرب حبل دولتهم وانتقضت أحوال جامعتهم ؛ فوقفوا وهم في أوائل شوطهم . ولا شك أن مثل هذه المدة القصيرة ، مع الحال التي وصفناها ، لا تبلغ أمةً فيها زيادة على ما بلغته العرب . وإذا تتبعنا علوم اليونان ، وجدت أنهم لم يصلوا منها إلى المبلغ^(١) الذي أخذته العرب عنهم ، إلا بعد أن أتت عليهم آلاف من السنين . والذين خلفوا العرب من الإفرنج ، إنما بلغوا هذا الشوط^(٢) البعيد ، في هذا الزمن القصير ، لأنهم تلقوا العلم في مدارسهم ، وتلقنوه عن أفواههم ، ونقلوا كتبه إلى ألسنتهم مشروحةً مبسوبةً المسائل ؛ فلم يقف في سبيلهم ما يستوقف خطواتهم عن بلوغ الغاية التي ترمى إليها همهم . وفضلاً عن ذلك فقد أخذوا عنهم كثيراً من المصنوعات : كالورق والبارود والسكر والخزف والزجاج وتصفية المعادن وتركيب الأدوية ، وفنون من النساجة والدباغة^(٣) وغير ذلك . وعلى الجملة فقد تناولوا تمدّنهم تامّاً بحيث إنه لم يتقوض بناؤه عند العرب ، إلا وقد قامت حجارته بعينها عند مجاورهم .

أمّا كتب العرب فهلك أكثرها في الحروب والغارات ، فمنها ما أتلّفه العرب أنفسهم ، كمكاتب الأندلس التي يقال إن المنصور أحرق أكثرها ، وسائرها

(١) المبلغ : القدر .

(٢) الشوط : المسافة .

(٣) النساجة : حياكة النسيج .

أحرقه الإفرنج عند استيلائهم على مدن الأندلس ؛ ومكتبة بغداد التي أهلكتها هولاءكو^(١) في دجلة ؛ ومكتبة الفاطميين ، في مصر ، التي نهبتها جنود الأتراك ، ثم اختطفتها منهم عرب البادية ، فزقتها واستعملت جلودها نعالاً ، وتركت الباقي في الصحراء ، حتى دفنته الرمال ؛ وما بقي ، بعد هذه الجوائح وأمثالها ، استولت عليه أيدي الإفرنج شيئاً بعد شيء ، كما لا يزال الحال إلى يومنا هذا ، وعمرت بهذه البقية مكاتب أوروبا .

وقد فقد ولا شك ، في تلك الكتب ، شيء كثير من العلم ، ولكن لا نخال أن هناك علماء ذهب من أصله كما يتوهم بعض المغالين في أمر هذه الحوادث ؛ فإننا لا نظن أنها كانت تشتمل على غير ما يشبه العلوم الباقية ، ولا ذهب بها شيء ؛ يُفتقر إليه في جنب العلم الحاضر ؛ وإن كان ثمة شيء لا يعوّض ، فلا يكون إلّا من قبيل التواريخ والتراجم وأوصاف البلاد والأبنية وغيرها ، مما درسته^(٢) الأيام ؛ ومن نحو دواوين الشعر والخطب وأشباهاها ، من مبتكرات القرائح ؛ وهي ولا ريب مما فقد منه شيء كثير . على أننا مهما قدرنا الخطب فيها صغيراً ، تسليّةً وتهويناً ، فلا أقلّ من ذهاب أسماء كثير من مصنفي تلك الكتب واندراس ذكرهم ؛ وكانوا ولا شك ألوفاً كثيرة من العلماء والمصنّفين ، ممن كانوا فخرًا لهذه الأمة ، وعنواناً على عظيم مجدها وارتقائها في سلم المدنية والعلم . على أن ذهاب تلك الكتب لم يكن مما يؤسف عليه ، لو بقيت الأمة جارية في سبيل سلفها ، ولا ذهابها هو الذي حطّ الأمة من منزلتها وذهب بعلومها ، ولكن الرُزء^(٣) ، كل الرزء ، ما ابتليت به الأمة من الخمول^(٤) والقفود ؛ وما توالى

(١) هولاءكو : فاتح تترى فتح بغداد زمن العباسيين سنة ٦٥٦ هـ وكان آخرهم المعتصم .

(٢) درسته الأيام : ذهبت به ولم يبق له أثر .

(٣) الرزء : المصيبة .

(٤) الخمول : الكسل والتأخر .

عليها من التدابر والشقاق ؛ وتعاورها من تسلط يد الأجنبي دهرًا بعد دهر ، حتى اضمحل العلم منها على التوالى ، ولم يبق منذ مئات من السنين ما يُذكر إلا علوم الدين ، قصرت عليها الهمم ، ووقفت عندها المدارك ، وتحيزت بها حلقات الدروس . ثم اندرس الدين كغيره إلا عند الخاصة وقليل ما هم ، فلم يبق إلا التعصب يزاد عصرًا بعد عصر وسنةً بعد سنة ، فكان تلك العلوم كلها تقمّصت^(١) الدين لباسًا ، ثم استحال الدين إلى تعصب يقوى كلما ضعفت مدارك أهله ، ويتأصل في القلوب كلما خلت من العلم ؛ فهو اليوم مجموع علوم الدنيا والآخرة ، والخلف من تلك العلوم بأسرها . والله يداول الأيام بين الناس ، سبحانه ، لا معتب لحكمه ، وهو الفاعل المختار .

ج - فى العلم الطبيعى

كذب الحس وكذب الحواس

يعرض للإنسان أحيانًا ، أن يرى أشباحًا ، أو يسمع أصواتًا لا حقيقة لها فى الخارج ، ولكنها تتصوّر له بصورة الحقائق الموجودة ، فلا يشكّ فى صحّتها ، وهو من غريب الأسرار المودعة فى الفطرة . وربما كانت تلك الأشباح أو الأصوات موجودة فى الخارج . ولكن الحواس تؤدّيها إلى المدركة على خلاف صورتها الحقيقية ؛ وعلى الحالين يكون العقل مكذوبًا : إمّا من قبل الحس نفسه ، كما فى الحالة الأولى ، أو من قبل آله ، كما فى الحالة الثانية .

وكذب الحس من الأعراض الدالة على الاختلاط^(٢) والعتاهة^(٣) بأنواعها ،

(١) تقمّصت : لبست قميصًا آخر .

(٢) الاختلاط : اختلاط العقل .

(٣) العتاهة : فقدان العقل . ونقصانه .

إلا أنه كثيراً ما يعرض لأصحاء العقول ، لكنه إذا تكرر وتزيم ، أو كان على وجه يبعد كثيراً عن مقتضى العقول ، كان ، ولا جرم ، دليلاً على اختلال العقل ، أو مقدمةً لحدوثه . وأما إذا عرض اتفاقاً ، أو كان غباً أنهماك^(١) مُفترط في أمرٍ من الأمور ، أو على أثر شغلٍ عنيف^(٢) ، أو وجدانٍ شديد^(٣) التأثير ، فإنه يكون عرضاً ، ثم يزول بزوال سببه . على أنه في كلتا الحالتين ، لا يكون إلا عن اضطراب في أحوال الدماغ ، وتهيج عنيف في العصب ، وهما كثيراً ما يمران بغير أن يؤثرًا في العقل أثراً ثابتاً ؛ فيكون بمثابة ما يقع من الهذيان في الحميات ، ثم يزول بزوالها .

أما حقيقة هذا الشعور ، وكيفية حدوثه ، فما اشتغل به الحكماء في كل عصر وصوّروه على أوجهٍ شتى ، بعضها نَسَخَه^(٤) تبذُّل الآراء العلمية ، وبعضها لا يزال محلاً للخلاف والبحث . وقد عرفه المتأخرون بأنه استحالة الفكر إلى شعور ، وبعبارة أخرى ، تمثل الصور العقلية بهيئة صورٍ محسوسة . وأشهر ما ذكروا في سببه يرجع إلى ثلاثة أقوال : أحدها أنه نتيجة خللٍ عقليٍّ خاصٍ يتبدى بهيجٍ دماغى ، ويحدث عنه اختلاطٌ في الخياليات ، يؤدّى إلى فقد التوازن بين القوى العقلية . والثانى أنه عملٌ دماغى محض ، أى شعورٌ حقيقى ، ينشأ بغير وجود مؤثرٍ في الخارج ، وحينئذ فلا خلل في العقل ، وإنما الخلل في جهاز الحس ، بأن يؤدى إلى العقل صوراً زُورِيَّة ، ويحمّله على أن يحكم أحكاماً مُحَالِيَّة^(٥) . والثالث أنه أثر شعورٍ سابق ، يتجدد على نفس صورته مع زوال

(١) أنهماك : تعب .

(٢) عنيف : شديد ، قاس .

(٣) الوجدان : إدراك الشيء بالعقل .

(٤) نَسَخَه : أبطله .

(٥) مُحَالِيَّة : مستحيلة أى غير قابلة للحدث .

المؤثر؛ فهو نتيجة انقباض^(١) في الدماغ، بحيث يتمثل له الفكر، من غير انفكاك ويكون على هيئة شعور. وهناك أقوال^٢ آخر لا ترجع إلى حقيقة واضحة، ولكن على كل حال، فإن هذا الشعور لا يتم، ما لم يكن ثمة خلل في أعمال الدماغ، بحيث ينفرد التخيل عن الإرادة، على نحو ما يكون في حالة الذهول والانجذاب؛ وحينئذٍ تعمل المتخيلة من تلقاء نفسها، من غير أن يتوجه العقل إلى تأمل الصور التي تمثلها، والحكم عليها.

ومعلوم أن بعض المخدرات كالخشيش، إذا استولى على العقل يفعل الفعل نفسه، وحينئذٍ فمن البين أن من ظهر فيه مثل آثار الخشيش بدون أن يتناوله، يكون دماغه وجهازه العصبي، في نفس الحالة التي يكون عليها شارب الخشيش، أي في حالة التهيج الشديد؛ ولا فرق في ذلك بين أن يكون عن سبب طاري^(٢) من مثل الأسباب المذكورة قبلاً، أم عن اختلال في أعمال الدماغ، فهو على الجملة، ليس إلا حالة مرضية، أو حالة عقلية ليست هي الحالة الطبيعية. وهناك مشابهة أخرى بين المشاهدات التي تُرى في هذه الحال، وما يعرض من مثلها في الحلم، مما يدل على أن لكليتا الحالتين مَوْرِدًا^(٣) واحداً، وهو ما دُكر من أفراد المتخيلة بما تصوّره للعقل، وحينئذٍ فهما شيء واحد، يصح أن يقال فيه إنه حلم في اليقظة، أو اختلال في النوم. ثم إن المشاهدات المذكورة، كثيراً ما تعرض للإنسان بعد أن يغمض عينيه، وقبل أن ينام، فيرى أشباحاً غريبة، ويسمع أصواتاً باطنة، حالة كونه لا يزال مستيقظاً يسمع الأصوات التي حوله؛ وهي إذ ذاك منزلة بين الاختلال والحلم. وإنما يكون ذلك في

(١) انقباض : انكماش .

(٢) طاري : حادث .

(٣) المورد : المنبع .

ساعة غيبوبة التعقل ، حين يدخل الإنسان في حالة ينتقل منها إلى النوم ؛ ولذلك إذا انتبه ، فعمد إلى تأمل تلك المشاهدات ، تغيب عنه في الحال ، وهو الدليل على أنها من عمل المتخيلة وحدها ، ولا عمل معها للإرادة التي هي مبدأ التعقل وتميز المدركات .

وأكثر ما يقع كذب الحس ، في مدركات البصر والسمع ، لما أنها أكثر الحواس إيراداً للمحسوسات على الحس المشترك^(١) ، ولأن أثرها في الدماغ أشد ارتباطاً بالصور المحسوسة مما يرد عن سائر الحواس . ويكثر حدوثه في الأحوال التي يضعف فيها تأثير المحسوسات على الحواس الظاهرة : كالظلمة والسكون والإغراق في التأمّلات الباطنة ، وما أشبه ذلك ؛ لأن المتخيلة حينئذ تخلو بالدماغ ، وتصور له التماثيل المختلفة من غير أن يكون لها ما يعارضها من الحس الظاهر . ولذلك ترى بعض الناس ، إذا انفردوا ليلاً ، أو سافروا في مجمل^(٢) من الأرض ، تخيلوا أشباح ضواري أو لصوص ، وسمعوا أصواتاً خفية ؛ ويكثر ذلك عند من تواترت^(٣) على أسماعهم الخرافات ، واستحوذت على عقولهم الأوهام والأباطيل ، فتتمثل لهم أشباح العفاريت والجن والغيلان وأشباه ذلك مما اختزن في خيالهم .

وأما في مدركات ما سوى هاتين الحاستين : فلا يقع مثل ذلك إلا في حالة الاختلال العقلي ؛ فإن المعتوهين قد يشعرون بروائح وطعوم وهمية ، ويتخيلون أحياناً أن يداً تلمسهم ، أو أنهم يضرّبون أو يؤثّقون ، وكل ذلك

(١) الحس المشترك : تعبير فلسفي هو القوة الباطنة التي ترتسم فيها صورة الجزئيات المحسوسة بعدما توردها عليها الحواس الظاهرة .

(٢) المجمل : الأرض المنقطعة التي لا ساكن فيها .

(٣) تواترت : جاءتهم بالتتابع .

لا يعرض للأصحاء إلا ما كان منه نادراً في الحلم ، وهو ما يؤيد الشبه بين الحلم والاختلال ^(١) .

وأما كذب الحواس ، فيكون العقل معه صحيحاً ، لأن المدرّكات تكون متحققة في الخارج ، ولكنها تتأدى إلى العقل على خلاف ما هي فيحكم بمقتضاها . وكذلك الحاسة تكون سليمة أيضاً ، غير أنها تلتبس عليها أعراض المحسوسات ، إما لشيء في المحسوس كما تُرى العصا المغموس طرفها في الماء مكسورة ، وكما يُرى السراب ماء ؛ أو لشيء في الحاسة نفسها ، كما يُرى النجم ذا شعاع متشعب ، وإنما هذه الشُّعب في بلورية العين . وأما إذا كانت الحاسة مَوْوُوفة ^(٢) كما يحدث أحياناً فساد الذوق لحالة مَرَضِيَّة ، فيتغير بهذا السبب طعمُ المذوّقات ، وكما يتفق لبعض الناس أن يفقد الذوق والشمّ بَتَّةً ، أو أن لا يفرق بين بعض الألوان كالأحمر والأخضر لم يكن ذلك في شيء مما نحن فيه .

وكذبُ الحواس أكثر ما يقع للبصر لاختلاف ما يرد عليه من أعراض المُبَصِّرات ، إذ به يدرك اللون والشكل والحجم والمسافة والوضع وغير ذلك . وأكثر ما يخطئ البصر في تقدير حجم الأشباح إذا اختلف لونها ، كما إذا كان أحد الشبحين أبيض ، والآخر أسود أو قريباً منه ، فإن الأبيض يُرى أكبر حجماً ، وعلمته انتشار النور عنه ، حتى كأنه يفيض عن أطرافه ؛ وبهكسه الأسود ، ولا سيما إذا كان محاطاً ببياض ، فإنّ البياض الذي حوله يسطو عليه ، حتى كأنه يأخذ شيئاً من أطرافه . ولهذا السبب نرى الهلال ، في أوائله ، أطول عند طرفيه مما يليه من القسم المظلم المنعكس إليه نور الأرض ؛ ونرى بعض النجوم أكبر من بعض ، تبعاً لشدة ضوئها ، حتى نتوهم أن لبعضها قطراً

(١) الاختلال : اختلاط في العقل .

(٢) مَوْوُوفة : أى مصابة بآفة ، والآفة : الشيء الفاسد المردول .

محسوساً؛ مع أنها ترى جميعاً بالمِرقب (التلسكوب) أشبه بنقطة هندسية . وبهذا الاعتبار كان المتقدمون يقدّرون أقطار السيارة أعظم مما هي . فإنّ تينخو براهى ، مثلاً ، كان يقدّر حجم الزهرة أكبر مما هو باثنى عشر ضعفاً ؛ وكان كبلر يقدّره أكبر بسبعة أضعاف . ولكن لما اخترعت المناظير ، أمكن أن يُرى كل من السيارة والثوابت على حجمه النسبيّ ، لأنها قللت كثيراً من انتشار النور وإن لم تقطعه بالمرّة .

وهناك أمرٌ آخر ، وهو أننا نرى الشمس والقمر وصور الكواكب عند الأفق ، أعظم مما تُرى بعد ارتفاعها مسافة في السماء ، وهو من الأمور التي لم يتوصلوا إلى بيان علّتها على وجه يكفل بالاعتناع ، ولكنه على كل حال راجعٌ إلى خطأ البصر ؛ لأنّ الكبر والصغر في رأى الشبح الواحد ، إنما يتأتّيان عن القرب والبعد ، وليس في مسافة الشمس والكواكب ما يظهر فيه مثل هذا الفرق . على أنه لو كان هذا مما يؤثّر في منظرها ، لوجب أن تُرى عند الأفق أصغر ؛ لأنّنا لو قسنا القمر وهو عند الأفق ، ثم قسناه وهو في السمّت^(١) لوجدنا قطره عند الأفق أصغر بنحو ١ من ٦٠ من قطره في السمّت ؛ لأنه حينئذ يكون أبعد عن الناظر بأربعة آلاف ميل التي هي قياس نصف قطر الأرض .

ومن كذب البصر أن تظهر الألوان على غير ما هي ، وهو محمولٌ في الغالب على تعب الشبكية^(٢) وذلك كما إذا وُضع أمام العين لونٌ أحمر ، ونظرت إليه مدةً ، فإن الجزء من الشبكية المتأثر بالأحمر ، يستمرّ بعد ذلك حيناً لا يشعر بهذا اللون ؛ فإذا عُرض على العين ، والحالة هذه ، رقعةٌ بيضاء فإنّ هذا الجزء منها لا يبصر إلّا اللون المتّم للأحمر ؛ فيظهر ما يقع عليه من لون الرقعة أخضر .

(١) في السمّت : خط مستقيم طولا يكون من الأعلى إلى الأدنى موازياً لرأس الإنسان .

(٢) الشبكية : أى شبكية العين ، وهى أجزاءها المتداخلة .

ومثله ما إذا كتب الإنسان ، مدة ساعة أو نحوها بالحبر الأحمر ، ثم نظر بعد ذلك إلى صحيفة مكتوبة بالحبر الأسود ، فإنه يراه أخضر . وما يعسر تعليله في هذا المقام ، أنه إذا وضع لونان مختلفان ، أحدهما بجانب الآخر ، لا يُبَصَّران كما لو وُضع كل منهما وحده ، ولكن يَرى كل منهما كأنه قد أضيف إليه شيء من مُتَمِّ الآخر . وعليه فإذا وُضع الأحمر بجانب الأخضر ، ظهر الأحمر أشدَّ حمرةً ، والأخضر أشدَّ خضرةً ؛ وإذا وُضع الأحمر بجانب الأزرق ، يميل الأزرق إلى الأخضر ، والأحمر إلى النَارَنجِي (١) .

وأمثلة كذب البصر كثيرة ، منها في اللون ، ومنها في الحجم ، أو الشكل ، أو غير ذلك مما ذُكر فلا نطيل بها . وعلى كذب البصر بُنيت صناعة التصوير وتمثيل ما في الأشباح من دقائق الأجزاء الشاخصة والغائرة المقوِّمة لأشكال الأجسام ؛ وإليه المرجع في كل ما يرى من الصور البديعة الصنع ، التي يتنافس بها المصورون ، وتُبَدَّل فيها الألوف من الدنانير . وليس ممَّا إِلَّا من رأى منها ما هو بالغ أتمِّ مبلغٍ من استحكام الصنعة ، حتى قد يتوهم الرسوم المصورة أشباحاً مجسَّمة ، وإنما هي كذلك عند الباصرة ؛ وأمَّا عند اللمس فليست إِلَّا أطلِيَّةً ساذجة على ألواحٍ بسيطة . وقس على ذلك ما يتعاطاه بعضهم من الشعوذة المختلفة ، مما حَيَّرَ عقول الأغرار ، وأوهمهم وجود السِّمِيَاء (٢) والطلاسم إلى غير ذلك .

أمَّا كذب بقية الحواسِّ ، فهو أقلُّ كثيراً قلَّةً ما يقع في محسوساتها من الاشتباه ، وهو لا يكاد يعرِض إِلَّا للسمع واللمس ، وذلك كما إذا احتجبت جهة

(١) النارجي : أى لون أحمر كلون الرمان .

(٢) السيمياء : ضرب من الألعاب السحرية ، تحدث فيها مثالات خيالية لا وجود لها في

الصوت ، وردّه الصدى من جهة أخرى ، فإنّ السامع يتوهمه صادراً من تلك الجهة . ويقرب من هذا ، الإيهام الذى يفعله المتكلم من جوفه ، فيوهم السامع أن المتكلم غيره . وكما إذا وضع الإنسان يده فى ماء حار ثم غمسها فى ماء فاتر ، فإنه يشعر بذلك الماء بارداً . وإلى مثل هذا السبب ، يرجع ما نجده من برد ماء الينابيع فى الصيف وفتوره فى الشتاء ، مع أن درجة حرارته فى الحالين واحدة . وفى جميع ما ذكر ، لا بدّ لإدراك حقيقة المحسوس من الاستعانة بحاسةٍ أخرى ، أو الرجوع إلى قياس العقل أو التجربة . وعلى كل حال ، فالعقل هو قاضى محكمة الحواس ، وإليه ينتهى الفصل فى كل ما يُعرَض عليه منها ؛ فإذا عُزل عن منصّته ، أو ضلّ فى حكمه . لم ينفع بعضها شهادةُ بعضٍ ، ولم يؤثّق منها بحكم صحيح .

٤ - إبراهيم اليازجى اللغوى

١ - دراسات

اللغة والعصر

كتبه يوم انصرف الأدباء إلى تحصيل ملكة الكتابة العربية الصافية والتضلع من اللغة بحقيقتها وبجازها .

لم يبقَ فى أرباب الأقلام ومنتحلى صناعة الإنشاء ، من هذه الأمة ، من لم يشعر بما صارت إليه اللغة ، لهدننا الحاضر ، من التقصير بخدمة أهلها ، والعُقم بحاجات ذويها ، حتى لقد ضاقت مُعْجَمَاتُهَا بمطالب الكتاب والمُعَرِّبين ، وأصبحت الكتابة فى كثيرٍ من الأغراض ضرباً من شاق^(١) التكليف ، وباباً

(١) الشاق : المتعب .

من أبواب العنت . واللغة لا تزداد إلا ضيقاً باتّساع مذاهب الحضارة وتشعب طرق التفنن في المخترعات والمستحدثات ، إلى أن كادت تُنبذ^(١) في زوايا الإهمال وتلحق بما سبقها من لغات القرون الخوال . ومست الضرورة إلى تدارك ما طرأ عليها من الثُلَم قبل تمام العفاء ، وقبل أن ينادى عليها مؤذن العصر : سبحان من تفرّد بالبقاء ، ويُختم على مُعْجَماتها بقصائد التأبين والثناء .

تلك هي اللغة التي طالما وصفها الواصفون بأنها أغزر^(٢) الألسنة مادةً ، وأوسعها تعبيراً ، وأبعدها للأغراض مُتَنَاولاً ، وأطوعها^(٣) للمعاني تصويراً ؛ قد أفضت^(٤) اليوم إلى حالٍ لورام الكاتب فيها أن يصف حجرة منامه ، لم يكبد يجد فيها ما يكفيه هذه المؤونة اليسيرة ، فضلاً عما وراء ذلك من وصف قصور الملوك والكبراء ، ومنازل المترفين والأغنياء ، وشوارع المدن الغناء ، وما نَمَّ من آنيةٍ وأثاث وملبوسٍ ومفروش ، وغير ذلك من أصناف الماعون وأدوات الزينة ، مما لا يجد لشيء منه اسماً في هذه اللغة ؛ ولا يكون حظّ العربي من وصفه إلا العيى والحصَر^(٥) ، وطىّ لسانه على معاني في قلبه لا يتسنى له إبرازها بالنطق ، ولا يجد سيلاً إلى تمثيلها باللفظ ؛ كأنّ المقاطع التي يعبر بها عن هذه الشخصّات لم يُخلَق لها موضعٌ بين فكّيه ؛ وليست مما يجري بين لهما ته^(٦) وشفتيه ، فعاد كالأبكم يرى الأشياء ويميّزها ، ولا يستطيع أن يعبر عنها إلا بالإشارة ، ولا يصفها إلا بالإيماء .

(١) تنبذ : تلفظ ، ترك جانباً .

(٢) أغزر : أوفر .

(٣) أطوعها : ألينها .

(٤) أفضت : صارت .

(٥) الحصر : العي في النطق وعدم الإفصاح عن المعنى .

(٦) اللهاة : اللحمة المشرفة على الخلق من أعلى الفم .

ويا ليت شعري ، ما يصنع أحدنا ، لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ما نمتّه من المسمّيات العضوية وغير العضوية ، من أنواع الحيوان وضروب النبات وصنوف المعادن ؛ وعان^(١) ما هناك من الآلات والأدوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف منه من القِطَع والأجزاء ، بما لها من الهيئات المختلفة ، والمنافع المتباينة ؛ وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات ؟ ثم ما هو فاعلٌ ، لو أراد الكلام فيما يحدث ، كل يومٍ ، من المخترعات العلمية والصناعة والمكتشفات الطبيعية والكيمائية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما اسكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلاً^(٢) ولا دقيقاً إلا تدل عليه بلفظه المخصوص ؟

لا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرّك له به لسان ، ولا يعهد له ، بين أنواع معجمات اللغة ، ألفاظاً يعبر بها عنه ، ولا يغنيه في هذا الموقف ما عنده من ثمانين اسماً للعسل ، ومثني اسمٍ للخمر ، وخمسمائة للأسد ، وألف لفظة للسيف ، ومثلها للبعير ، وأربعة آلاف للدهاية ، وما يفوت الحصر لشيء آخر حرص مؤلّف القاموس على استقصاء ألفاظه ، حتى لم يكد يذكر مادةً إلا وفيها شيء يشير إليه ويدلُّ عليه !

على أن اللغة مرآة أحوال الأمة ، وصورة تمدّنها ، ورسم مجتمعتها ، وتمثال أخلاقها وملكاتّها ، وسجل ما لها من علوم وصنائع وآداب . وإنما تضع منها على قدر ما تقتضيه حاجاتها في الخطاب ، وما يتمثل في خواطرها ، أو يقع تحت حسّها من المعاني . ومعلوم أن العرب واضعى هذه اللغة ، كانوا قوماً أهل بادية ،

(١) عان : شاهد .

(٢) جليلاً : عظيماً .

بيوتهم الشعر والأديم^(١) ، ومفرشهم الباري^(٢) والبلاس^(٣) ولباسهم الكساء والرداء ، وأثاثهم الرحي والقدر ، وآنيتهم القعب والجفنة^(٤) ، إلى ما شا كل ذلك مما لا يكادون يقدّونه في حلّ ولا ترحال . فأين هم ، وما نحن فيه ، لهذا العهد ، من اتساع مذاهب الحضارة ، والاستبحار في الترفّ واليسار ، وكثرة ما بين أيدينا من صنوف المرافق^(٥) وأنواع الأثاث والزخارف ؛ وما نحن فيه من التفتن في أحوال المجتمع والمعاش ، فضلاً عما بلغ إليه أهل هذا العصر من التبسّط في مناحي العلم والصناعة ، مما كان أولئك بمعزلٍ عن جميعه ؛ إلاّ ما حدث بعد ذلك في عهد استفحال الإسلام مما ذهب عنّا أكثره ، وما كان فيه لو بلغ إلينا إلا غنّاً قليل .

ومهما يكن من حال أولئك القوم ، وضيق مُضطرب الحضارة عندهم ، وما نجد في ألفاظهم من الفاقة والتقصير عن حاجات هذا الزمن ، فلا يتوهمن متوهم أن ذلك واردٌ على اللغة من هرمٍ أدركها ، فقعدها عن مجارة الأحوال العصرية ، وأنّاخ بها في ساقاة الألسنة الحالّية^(٦) فإن معنى الهرم^(٧) في اللغة أن يحدث عند المتكلمين بها معانٍ قد خلت ألفاظها عنها ؛ ثم تضيق أوضاعها عن إحداث^(٨) ألفاظ تؤدّي بها تلك المعاني ، فيطرأ على اللغة النقص ، حيناً بعد حين ،

(١) الأديم : الجلد .

(٢) الباري : الحصير المنسوج من القصب .

(٣) البلاس : بساط نسيج من شعر الماعز .

(٤) القعب : القدح الضخم يصنع من الخشب . الجفنة : القصعة الكبيرة .

(٥) المرافق : الأشياء التي ينتفع بها .

(٦) ساقاة الألسنة : أي مؤخّرة اللغات .

(٧) الهرم : الشيخوخة .

(٨) إحداث : وضع .

إلى أن تعجز عن أداء أغراض أهلها ، ولا تبقى صالحة للاستعمال ؛ وحينئذٍ فلا يبقى إلّا أن يُلقى حبلها على غاربها^(١) ، أو يستعان بغيرها على سدّ ماعرض فيها من الخلل . بما يغيّر من ديباجتها ، وينكّر أسلوب وضعها حتى تتبدل هيئاتها على الزمن ؛ وتصير ، على الجملة ، لغة أخرى .

وليس بمنكرٍ أن ما وصفناه من هذه الحال يشبه في بادى الرأى ما نشاهده من حال لغتنا اليوم ، وما لم نزل ننعاه عليها ، منذ حين ، من تقصيرها عن الوفاء بمطالبنا العصرية ، إلّا أن ذلك إذا استقرت أوجهه وأسبابه ، وسبّرت غور اللغة في نفسها ، وقست مبلغ استعدادها ، علمت أنه ليس منها فى شيء ، وأيقنت أنها لا تزال فى ريمان شبابها وطور ترعرعها ، وأن فيها بقيّةً صالحةً لأن تجارى أوسع اللغات وأكثرها مادّةً ، ولكن ما أدركها من ذلك واردٌ من قبل الأئمة ، وتخلّفها فى حلبة الحضارة والمدنية ؛ إذ اللغة بأهلها تشبّ بشبابهم وتهرم بهرمهم ، وإنما هى عبارة عما يتداولونه بينهم لا تعدّو ألسنتهم ما فى خواطرهم ، ولا تمثل ألفاظهم إلّا صور ما فى أذهانهم . وبدهى أن اللغة لم توضع دفعة واحدة ، وإنما كان يوضع منها الشيء بعد الشيء ، على قدر ما تدعو إليه حاجة المتكلمين بها وقد اختصّت هذه اللغة بمزيةٍ عزّ أن توجد فى غيرها ، وهى أن أكثر ألفاظها مأخوذ بالاشتقاق اللفظى أو المعنوى ، بحيث صارت إلى ما صارت إليه من الاتساع الذى لا تكاد تضاهيها فيه لغة ، على كونها من أقلّ اللغات أوضاعاً ، إلّا أنها من أكثرهنّ صيغاً وأبنية ؛ وهو السر فى قبولها هذا الاتساع العجيب ، فضلاً عما فيها من تشبّع طرق المجاز .

واعتبر ما ذكرناه من ذلك بالرجوع إلى ما كانت عليه اللغة زمن الجاهلية

(١) يلقى حبلها على غاربها : أى تترك وشأنها ، تذهب حيث شاءت . والغارب : رقبة الحمل

وهو تعبير صحراوى .

وفي صدر الإسلام ، ومقابلتها بما بلغت إليه على عهد الخلفاء من بني العباس ؛ بعد سكون الغارات واستتباب الفتوح ، وتنشئة الأمة لطلاب العلوم وتبسطها في فنون الحضارة ، بحيث خرجوا بها من حال الخشونة البدوية ، إلى أبعد مذاهب المدنية الشائعة لعهدهم ذاك ؛ لم يكادوا يُدخلون فيها لفظاً أعجمياً^(١) ، ولا اضطروا فيها إلى وضع جديد ، ولكنها خدمتهم بنفس أوضاعها التي وضعتها العرب ، فاشتقوا منها ما لا عهد به للعرب ، على وجهه الذي نقلوه إليه ، ولم تتكلم به أصلاً ؛ حتى أحاطوا بصناعة الفرس وعلوم اليونان ، وأدخلوا كثيراً من مصطلحات الأمم التي اجتاحتها^(٢) شرقاً وغرباً ، وزادوا على ذلك كله ما استنبطوه^(٣) بأنفسهم . واللغة مشايعة لهم في كل ما أخذوا فيه ، لم تنضب مواردها دونهم ، ولا رأينا من شكا منها عجزاً ولا تقصيراً ، إلى أن أدركهم من تبدل الأطوار ، وغارات الأقدار ، ما وقف بهم عند ذلك الحد ، فوقفت اللغة عند ما نراه فيما وصل إلينا من كتبهم . وتوالى الاجتياح بعد ذلك على الأمة ، وتتابعت دواعي الدمار ، حتى اندرست أعلام حضارتها ، وذهبت علومها أدراج الرياح ؛ فزال أكثر اللغة من ألسنتها بزوال معانيها ، حتى صار الموجود منها اليوم لا يقوم بخدمة أمة متمدنة ، ولا هو أهل لأن يُبلغ به ما منزلته تلك . ولذلك فإن كان ثمة هرمٌ فإنما هو في الأمة لا في اللغة ، لأن ما عرض لها من الهجر والإهمال غير لاحقٍ بها ، ولا ملحقٍ بها وهناً^(٤) ولا عجزاً ، وإنما هو عجزٌ في ألسنة الأمة ومداركها ، وتأخرٌ في أحوالها واستعدادها . ولو صادفت ، من أهلها ، البقاء على عهد أسلافهم من السعي في سبيل الحضارة وتوسيع نطاق العلم ، لم تقصّر عن مشايعتهم

(١) يستثنى من ذلك كتب الطب .

(٢) اجتاحتها : دخلوها بعامل الفتح .

(٣) استنبطوه : اخترعوه بأنفسهم .

(٤) الوهن : الضعف والتعب .

في كل ما فاتهم من الأطوار ، حتى تبلغ بهم إلى مجارة العصر الحاضر .
ولقد أتى على اللغة مئات من السنين بعد ذلك ، لم يُزَد فيها حرفٌ ، بل لم
يكُد يُحَفَظ منها ما يزيد على الحوائج البيتية والسوقية . على تناقص هذه الحوائج
وتراجع عددها يوماً بعد يوم ، بما طرأ^(١) على أهلها من الضغط والفاقة^(٢) ،
وما اتصل بذلك من استيلاء الجهل وتقلص العمران وذهاب الحضارة من بينهم ،
حتى عادت حوائج كثير من أهل المدن الحافلة لا تكاد تتعدى حوائج البدوى
والأكار^(٣) . وما دامت المعاني التي يعبر عنها باللغة معدومة ، فلا سبيل إلى
الألفاظ الدالة عليها ، إذ اللفظ إنما يُتَّخَذ للعبارة عن الخواطر التي في
النفس ، فلا يكون إلا على قدرها بالضرورة . وزاد على ذلك كله ذهابُ
ما كتب المتقدمون : بعضه بالإحراق كما تمَّ في مكتبة قُرْبُبة ؛ وكأنَّ هذا في مقابلة
ما وقع من مثله بالإسكندرية وفارس^(٤) وبعضه بالاجتياح^(٥) والنهب ؛ فلا
بقي في مكانه ينتفع به المتأخر ، ولا احتفظ به الذي نهبه لجهله قيمته . وبقى الشيء
اليسير نجده اليوم في مكاتب الأعاجم ، وأكثره مما اشترى من أيدينا بالذهب ...
فلا غرو إن نشأ عن تلك الأحوال كلها ذهابُ هذه اللغة من ألسنة الأعقاب ،
حتى لو رام أحدها إثارة دفائنها وتعهدها بالتجديد والإحياء ، لما وجد منها في
البلاد إلا الشيء النزر^(٦) لا يعدو ، في الغالب ، علوم الدين وما يتصل بها مما لم
يكُد أهل بلادنا يحافظون على سواه .

(١) طرأ على : أصاب .

(٢) الفاقة : الحاجة والفقر .

(٣) الأكار : الحراث .

(٤) فارس : بلاد إيران « العجم » .

(٥) الاجتياح : فتح الجيوش للبلدان والدخول إليها عنوة .

(٦) النزر : القليل .

ب - فى المفردات والتراكيب

فصل

فى السمع^(١)

تقول : سمعت الرجل يقول كذا ، واستمعتُه ، وسمعتُ كلامه ، وسمعتُ صوته ، وأنستُ صوته ، ووجدتُ حسَّه ، وسمعتُ له ركزاً^(٢) وسمعتُ له حسّاً وحسيّاً ، وما سمعتُ له حسّاً ولا جرّساً^(٣) وقد سمعتُ كذا ، وقرع سمعى ، ومرّاً بسمعى ، وورد على سمعى ، ووقع فى سماعى ، وبلغ مسامعى ، وذلك سمع أذنى ، وسماع أذنى ، وهذا كلام ما استكَّ فى مسامعى مثله ، وما سكَّ سمعى مثله ، وما استأذن على سمعى مثله ، وتقول سَمِعُ أُذْنِي فلاناً يقول كذا ، وسمعه أذنى كما تقول : رأى عيني وقال ذلك سمع أذنى ، وسماع أذنى ، وسمعاً قاله ، أى قاله مسمعاً^(٤) وتقول سمعت له ، وإليه ، وأصغيت له ، وأصختُ له ، وأرعىته سمعى ، وراعىته سمعى ، وأقبلتُ عليه بسمعى ، ورفعتُ له حجابَ سمعى ، وراعىته سمعى وألقيتُ إليه السمع . وتقول لمن تحدّثه : سمعك إلى ، وسماعك إلى ، وسماع كحذار ، أى اسمع ، وتقول : تسَمَّع فلان إلى حديث القوم ، وإنه ليسترق السمع إذا كان يتسمع مختلفياً

(١) ننقل هذه المختارات عن كتاب (نعمة الرائد وشرعة الوارد فى المترادف والمتوارد) .

(٢) الرکز : الصوت الخفى .

(٣) الجرس : بالفتح والكسر ، الصوت الخفى وقيل هو بالفتح وبكسر مع الحس

للإزدواج .

(٤) هو من وضع المصدر المجرد موضع المزيد وانتصابه على الحال .

فصل فى الذوق

تقول: ذقت الطعامَ والشرابَ ذوقاً وذواقاً، وطَعِمْتُهُ طُعْماً « بالضم » وتطَعَّمْتُهُ .
وفى المثل تطَعَّمْ تطَعَّمْ . أى ذق تشبته ، وطعام مرّ المذاق والمذاقة ، ومر
الطَّعم « بالفتح »

وتقول : هذا طعامٌ حلوٌ ، وإنه لصادقُ الحلاوة ، محضُ الحلاوة ، خالص
الحلاوة ، وتمر وعسل حَمْتُ وَحْمِتُ ، أى شديد الحلاوة . وهو أحلى من المَنِّ ،
وأحلى من القند^(١) وأحلى من الشَّهْد ، وأحلى من الضَّرَب^(٢) ، وإنما هو الشَّهْد
المصْفى ، والسكر المكرر

وهذا طعام كَفَنَ أى لا ملح فيه ، وماء عذب ، وزلال ، وفُرات ، ورُضاب
وسلسال ، إذا كان خالصاً لا ملوحة فيه . ويقال رجل حَثِرَ اللِّسان ، كما يقال :
حَثِرَ الأُذُن ، أى لا يجد طعم الطعام .

فصل فى العشق والخلو

يقال : أحب المرأةَ وهَوِيَهَا ، وَعَشِقَهَا ، وتعَشَّقَهَا ، وَعَلِقَهَا ، وتعلَّقَهَا ،
وصبا إليها ، وَكَلَفَ بها ، وهام بها ، وَأَغْرَمَ بها ، وَوَلِهَ بها ، وولِعَ بها ووقعت بقلبه ،
وأخذت بمجامع قلبه ، وَأَشْرَبَ قلبه حبَّها ، وملك حبُّها عنانه . وهو بها صَبٌّ ،

(١) القند : عسل قصب السكر .

(٢) الضرب : العسل الأبيض .

كَلِفَ، مَغْرَمٌ، هَاطَمٌ، وَمُسْتَهَامٌ. وَهُوَ بِهَا كَلِفُ الْفَوَادِ، كَلِفُ الصَّلُوعِ، عَمِيدٌ^(١)
الْقَلْبِ. وَقَدْ أَصْبَتْهُ الْمَرَأَةُ وَتَصَبَّتْهُ، وَاسْتَهَوَتْهُ، وَدَلَّهَتْهُ^(٢) وَاخْتَبَلَتْهُ^(٣) وَهَيَّمَتْهُ...

فصل

فى الإخبار والاستخبار

يقال أخبرنى فلان كذا، وبكذا، وخبرنى وأنبأنى ونبأنى، وعرفنى وأعلمنى،
وأبلغنى كذا، وبُغِنِيهِ، وَحَدَّثَنِى بِالْخَبَرِ، وَقَصَّه عَلَىَّ، وَاقْتَصَّه عَلَىَّ وَنَقَلَ إِلَىَّ،
وَأَنهَاهُ إِلَىَّ، وَأَوْصَلَهُ، وَسَاقَهُ، وَرَفَعَهُ، وَنَمَاهُ. وَقَدْ بَلَغَنِى خَبْرُ كَذَا، وَأَتَانِى،
وَجَاءَنِى، وَوَرَدَ عَلَىَّ، وَانْتَهَى إِلَىَّ، وَتَأَدَّى إِلَىَّ...

٥ - إبراهيم اليازجى فى رسائله

رسالة إلى صديق

... لو أَجِبْتُ دَاعِيَ الشَّوْقِ لَمَّا دَعَا، وَكُنْتُ لِحَافِزِ^(٤) الذِّكْرِ طَيِّعًا، لَسَمَّتُ كُلَّ
خَافِقَةٍ^(٥) كِتَابًا وَحَلَمْتُ كُلَّ بَارِقَةٍ خَطَابًا، وَلَكِنِّى أَزْجُرُ لِحَاجِ^(٦) الشَّوْقِ بِالصَّبْرِ،
وَأَقْعُ سَوْرَةَ^(٧) الذِّكْرِ بِالْحِلْمِ، إِلَى أَنْ يَبْدُلَ اللَّهُ وَجْهَهُ الصِّحَافَ بِصَفْحَاتِ الْوُجُوهِ،

(١) عميد : من قولهم عمده المرض أى فدحه وأثقله .

(٢) دلته : أذهبت عقله .

(٣) اختبلته : أذهبت عقله .

(٤) الحافز : العاجل .

(٥) الخافقة : نابضة من نبضات القلب .

(٦) اللجاج : الإلحاح وطلب الشيء بشدة .

(٧) السورة : الوثبة ، والشدة .

جعل الله موعد اللقاء قريباً، ومتّعني بأنسك وأنت على ما تروم من حسن الحال ،
ورخاء البال .

رسالة أخرى إلى صديق

. . . كلما لجّ بنا داعي الشوق ، وضائق بنا مسافة الصبر ، عمدنا إلى هذه
الصحف نسودّها بشكوى الفراق ، ونشحنها بعتاب الدهر ، ونطويها على لواعج^(١)
الصدر ، ثمّ سیرناها والشوقُ باقي ، والشكوى لم تبرح ، والذكرى مناط^(٢)
النسيم كلما خفق ، والبرق كلما اثتلق والطير كلما صدح ، والروض كلما نفح ،
يومٌ يمرّ ويأتى غده ، والأمانى تتوقّع يوماً لا نجده .

شكر

مهما زدتنى من جميلك المألوف ، وصنيعك المعروف ، فما أزيدك على ما ينطق
به لسان حالى من الاعتراف بتطوّلك^(٣) والثناء على تفضّلك ، ولا سيّما فيما
أبديت من الحفاوة^(٤) واللفظ فى جانب أخى وأخيك ، النازل فى كنف^(٥)
تديرك ، الموكول إلى حسن رأيك ، وهى يدٌ لكّ حملت جميلها على عاتق^(٦) ،
فوق ما أثقلت أياديك السابقة ، وأطافك السالفة ، وإنى لآمل له بمؤازرتك^(٧)

(١) لواعج : جمع لاعجة : حرقه واشتعال .

(٢) مناط : اسم لموضع التعليق وقولهم : هو منى مناط الثريا أى فى البعد .

(٣) التطول : التفضل والمنّة .

(٤) الحفاوة : الإكرام وحسن الاستقبال .

(٥) الكنف : الجانب .

(٦) العاتق : ما بين الكتفين .

(٧) المؤازرة : المساعدة .

نَجَّحًا لَا يَعْتَرِضُهُ إِخْفَاقٌ مَسْعَى ، وَفَوْزًا لَا يَصْدِفُ عَنْهُ طَيْشٌ رَأَى . وَأَسْأَلَ اللَّهَ
لَهُ السَّلَامَةَ وَالتَّوْفِيقَ بِمَنَّةٍ وَطَوْلِهِ .

نعي

... ورد كتابك العزيز وأنا مشغول من مرض سيدي الوالدة بما أذاب
العيون أرقًا ، واستطار القلوب قلقًا ، حتَّى قضى الله بما تابع الحسرات ، وجدّد
العبرات، فإيَّاه أسأل أن يعوّضني طول بقائك، ويعزّيّني بقرب لقائك، بمَنَّةٍ وكرمه .

عزاء

... من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع^(١) ، فلم يصحب
دهره على غِرَّة^(٢) ، ولم يغتر من الأقدار بفترة ، لم تكبر عليه الرزية^(٣) إذا
اغتالت^(٤) ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طالّت ، فإن الدهر رقدة وهبّة ، وإن
الليالي كمنّة ووثة ، ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف موارد
الحياة ومصادرها . وإنما الموت طورٌ من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة
في الوجود ، ولا أزيدك علمًا بالكون وشرائعه ، والسكائن وطبائعه ، إنما هي
ذكرى لمن نجّاه الرزق فشغله ، وحلّ بساحته القضاء فأذهله ، وحسبى من
التعزية علمى بما عندك من موارد العلم المباح ، ومن التأسيّة ما تعلمه من حال
مخاطبك وهو سائل الجراح . وما أخلقنى بأن أقول : إنّ رزقك هذا قد

(١) المصارع : جمع مصرع ، مقتل .

(٢) غرة : غفلة .

(٣) الرزية : المصيبة .

(٤) اغتالت : أصابت وأخذت غيلة ، على حين غفلة .

زادني شجناً على أشجاني ، ونكأ ما تماثل من قرحة أحزاني ، ولكني قد
صيرني الدهر إلى حال لا تعمل فيها حال ، ولا أبالي بسلام ولا قتال ، فكأنما إياي
عنى أبو الطيب حيث قال :

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتّى فؤادى فى غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ تكسرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

٦ - إبراهيم اليازجى الوصّاف

سوريا

وهذه نزعة اجتماعية وطنية يرسلها الشيخ نفثة من صدر متألم على البلاد ويدعو فيها إلى الاتحاد، قال :

سوريا هي القطر الذي كسته الطبيعة حلةً الجمال ، فزقته يد الإنسان ، وخصّته
بمزايا تفرّد بها عن المثال ، فعادت عليه بالخسران ، وتباب^(١) السكان . جوٌّ صافٍ
الأديم ، لا يكفه^(٢) إلا ليجودَ السحابُ بالقطر ، ويترقق ماء العيون على
حصباء^(٣) كالدرّ ، فتنبسّ الرياضُ فيه عن ثغور الزّهر ، وهواء لا يهبُ إلا
عبرت أردانه^(٤) بشذا العطر ، فيبعثُ الحياة هبوبةً ، ويمارِجُ الأرواحَ طيبه ،
وسهولٌ فسيحة الأطراف ، خصيبة الأكناف^(٥) ، تتدفّق في جوانبها الجداول^(٦)

(١) التباب : الهلاك ، البوار .

(٢) اكفه الجو : أظلم لكثرة السحاب .

(٣) الحصباء : الحصى .

(٤) عبرت أردانه : الرदन طرف الكم الواسع . ويريد أن الهواء يتضخّم برائحة الأزهار

العطرة .

(٥) الأكناف : جمع الكنف : الجانب .

(٦) الجداول : جمع الجدول ، وهو مجرى الماء الصناعى .

والأنهار، وتنمى فى مناكبها^(١) الحقائق الملتفة الأشجار ، الطيبة الثمار ، وجبال احتبكت شعابها ، وتناوحت^(٢) هضابها^(٣) ونشزت^(٤) صخورها وآكامها ، وكُلِّت بالثلج هامها^(٥) ، واخضرَّت سفوحها ، واخضَلَّت آجامها^(٦) فكانت معقلاً للشريد ، ومعصماً للطريد .

هذه سورياً التى سبقت فى المدنية والحضارة ، واكتظت بالسكان والعمارة ، وإنما بلغت هذا الشأن العظيم بالزراعة والصناعة والتجارة . وهى تمتد من البحر المتوسط غرباً ، إلى الفرات والبادية شرقاً ، ومن آسيا الصغرى شمالاً ، إلى حدود مصر جنوباً ، فتشمل على القطر المعروف من قديم الزمان بأرض الموعد ، والأرض المقدسة .

وقاعدتها دمشق العريقة^(٧) فى الحضارة ، المتقدمة العهد فى المدنية ، جنة الأرض المنقطعة النظير ، فى جمال غوطتها ، وحسن موقعها ، وصفاء مائها ، واعتدال هوائها ، وطيب ثمارها ، وكثرة حدائقها . . .

وما عداها من مدن سورياً القديمة قد عفاها تقلب الأحوال ، فلم يبق منها إلا رسوم وأطلال ، وقامت على أنقاضها^(٨) الآن قرى حقيرة ، منتشرة فى هاتيك

(١) المناكب : جمع المنكب ، ما بين الكتف والظهر .

(٢) تناوحت : تقابلت .

(٣) الهضاب : جمع الهضبة وهى الجبل يعلوه انبساط .

(٤) نشزت : ارتفعت وظهرت .

(٥) هامها : جمع هامة وهى الرأس .

(٦) آجامها : جمع الأجمة وهى الأشجار الكثيرة .

(٧) العريقة : المتأصلة ، القديمة . الحضارة : التمدن .

(٨) الأنقاض : جمع النقص وهو المهتمد من الأبنية .

الربوع الدائرة^(١) يأوى إليها شراذم^(٢) من بقايا الأمم الغابرة ، كأنها لم تبقَ لتشهد بما تجنيه الحروبُ من الدمار ، وما يحدثه تفريقُ الكلمة من التبابِ والبوار .

٧ - إبراهيم اليازجي الحكيم حكم مأثورة

تردد كثير من الحكم في مقالات الشيخ ومصحاته وكلها تنبئ عن مبادئ قويمه وأخلاق عالية وصفات حميدة وأمثلة تحتذى وهالك بعضها :

« التحدث في الخسارة ، خسارة أخرى من الوقت » .

« إذا ارتكب الإنسان الرذيلة ولم يعلم به أحد فأقلّ ما عليه أن يجبل من الإنسانية » .

« لا يرتقى المرء في سلم الكمال حتى يعرف قدر نفسه . عرفنا الله بأقدار أنفسنا » .

« مثل بعض السادات ومربوبيهم مثل بعض الناس يصنعون الضم بأيديهم ثم يعكفون على عبادته » .

« من أنفق أيامه في الخير لا يحزن على زوالها ، كمن أنفق أمواله في اعتقاد العقد » .

« كان يقال في القديم : قيمة المرء ما يحسنه ، فصار يقال اليوم : قيمة المرء ما يخزنه^(٣) » .

(١) الدائرة : البالية .

(٢) الشراذم : جمع الشرذمة وهى الجماعة القليلة من الناس .

(٣) « المشايخ اليازجيين وأصهارهم » ص ٩٦ .

بعض المراجع

١ - المؤلفات

- إبراهيم اليازجي : ديوان العقد .
» : نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد .
» : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب .
» : رسائل اليازجي .
محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها .
منصور طنوس الخورى : الحملة الكسروانية .
يوسف الدبس : موجز تاريخ سوريا .
عيسى ميخائيل سابا : العدد ٦ من نوابغ الفكر العربى .
جرجى زيدان : آداب اللغة العربية
» : الفلسفة اللغوية
أنطونيوس شبلى : الشدياق واليازجى .
أنيس الخورى المقدسى : المختارات السائرة .
عيسى إسكندر المعلوف : تاريخ المشايخ اليازجيين وأصهارهم .
حنا الفاخورى : تاريخ الأدب العربى .

٢ - المجلات والنشرات

مجلة الضياء . مجمع المسرات . مجلة النفائس . مجلة المسرة . جريدة الأحوال
البيروتية (العدد الصادر فى ١٩ / ١٢ / ١٨٩٣) .

الفهرست

الفصل الأول

عصر إبراهيم اليازجي

صفحة

٥

١ - الحركة السياسية

٧

٢ - الحركة الاجتماعية .

١٠

٣ - الحركة الفكرية

الفصل الثاني

إبراهيم اليازجي في عصره

١٣

١ - حياته . . .

١٥

٢ - مشاركته في أحوال العصر

١٦

٣ - أخلاقه وصفاته

١٧

٤ - بره بأبيه .

١٨

٥ - طعامه وشرابه .

١٩

٦ - مواهبه وقرائحه

الفصل الثالث

جوانب إبراهيم اليازجي

٢١

١ - آثاره

٢٢

٢ - الشاعر

٢٣	٣ - الناثر .
٢٤	٤ - الصحفي
٢٦	٥ - العالم .
٢٨	٦ - الناقد . .
٣١	٧ - شهادة رجال عصره فيه .
٣٤	٨ - منزلته في عصره

الفصل الرابع

منتخبات من آثار إبراهيم اليازجي

١ - إبراهيم اليازجي الشاعر

	١ - في المدح :
٣٧	السماء الأعزل .
٣٨	حكمة المعبود
	ب - في الرثاء :
٤٠	حكم الأقدار .
٤١	عبرة الأقلام
	ج - في الوصف :
٤٤	الجهاد الحى
٤٥	زهر الياسمين
٤٥	الزهرة .
	د - في الغزل :
٤٨	ما مر ذكرك .
	هـ - السياسة :
٤٩	تنبهوا واستفيقوا

٢ - إبراهيم اليازجي الناقد

٥١	١ - دستور الأدب .
٥٥	ب - في النقد الأدبي .

٣ - إبراهيم اليازجى العالم

- ١ - فى الفلك :
٦٣ القمر
٦٦ الزهرة .
ب - فى تاريخ العلم :
٧١ العلوم عند العرب
ج - فى العلم الطبيعى :
٧٤ كذب الحس وكذب الحواس .

٤ - إبراهيم اليازجى اللغوى

- ١ - دراسات :
٨١ اللغة والعصر .
ب - فى المفردات والتراكيب :
٨٨ فصل فى السمع
٨٩ » » النون .
٨٩ » » العشق والخلو .
٩٠ » » الإخبار والاستخبار

٥ - إبراهيم اليازجى فى رسائله

- رسالة إلى صديق
٩٠
» أخرى إلى صديق
٩١
شكر .
٩١
نعمى
٩٢
عزاء
٩٢

٦ - إبراهيم اليازجى الوصاف

- سوريا .
٩٣

٧ - إبراهيم اليازجى الحكيم

- حكم ماثورة
٩٥
المراجع
٩٦
الفهرست
٩٧

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف

في شهر نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٥٥